تيموثي سنايدر

مكتبة ١٢٩٧

حول الطغيان

عشرون درساً
من القرن العشرين

ترجمة
عبد السلام المحمّدي

جسور للترجمة والنشر

حول الطغيان

عشرون درساً من القرن العشرين

مكتبة 1297

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

حول الطغيان: عشرون درساً من القرن العشرين/ تيموثي سنايدر؛
ترجمة عبد السلام المحمدي.
١٤٤ص.
ISBN 978-614-431-756-3
١. الاستبداد ـ تاريخ ـ القرن العشرون.
٢. الثقافة السياسية.
321.9

مكتبة
t.me/soramnqraa
9 8 23

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

On Tyranny
Twenty Lessons from the Twentieth Century
©2017 by Timothy Snyder
All Rights Reserved

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة لجسور
الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢١

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

حول الطغيان

عشرون درساً من القرن العشرين

مكتبة 1297

تيموثي سنايدر

ترجمة

عبد السلام المحمَّدي

جسور للترجمة والنشر

المحتويات

مقدمة الترجمة ٧

تمهيد: التاريخ والطغيان السياسي ١٩

(١) لا تعطِ الطاعة مُقدّماً ٢٣

(٢) دافع عن المؤسسات ٢٩

(٣) احذر من دولة الحزب الواحد ٣٣

(٤) تحمّل مسؤولية صورة العالم ٣٩

(٥) تذكر أخلاقيات المهنة ٤٥

(٦) كن على حذر من القوى شبه العسكرية ٤٩

(٧) كن متحوطاً إن اضطررت إلى حمل السلاح ٥٥

(٨) كن متميزاً وعارضْ ٦١

(٩) كن لطيفاً مع لغتنا ٦٩

(١٠) آمن بالحقيقة ٧٥

(١١) قم بالتحري والبحث ٨٣

(١٢) حافظ على التواصل البصري والدردشة الخفيفة ٩١

(١٣) مارس السياسة بجسدك ٩٥

(١٤) أسّسْ حياةً خاصةً ٩٩

(١٥) ساهمْ بدعم قضايا نبيلة ١٠٥
(١٦) تعلّمْ من نظرائك في الدول الأخرى ١٠٩
(١٧) اصغِ بسمعك للكلمات الخطيرة ١١٥
(١٨) كن هادئاً حين تحل المصيبة ١٢١
(١٩) كن مناضلاً وطنياً ١٢٩
(٢٠) كن شجاعاً بكل ما تستطيع ١٣٥
خاتمة: التاريخ والحرية ١٣٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة الترجمة

هذا الكُتيّب الذي بين يديك يُمثّلُ لوناً من الكتابة السياسية المركزة الذكية. ويتجلى ذكاؤه من جهاتٍ متعددةٍ، تشمل: توقيت نشره، وحجمه، وطبيعة المعالجة التي قدَّمها.

فقد اختار مؤلِّفه أن يخرج به للناس مع تولّي الرئيس الأمريكي دونالد ترامب (Donald Trump) السلطة في البيت الأبيض؛ بل كان مؤَلِّفُه يطمح إلى أن يكون صدور الكتاب في اليوم ذاته الذي أدَّى فيه هذا الرجل القسَم الرئاسي، لكن حالت دون ذلك ظروفُ التوزيع والنشر وملابساتُهما فتأخر قليلاً. ولهذا التوقيت دلالة رمزية لا تخفَى.

أما الحجم، فهو كما ترى كُتيِّب صغير، وهو ما يجعل من عملية قراءته أمراً ميسوراً بما يضمن تمدده في شريحة مجتمعية واسعة. إنه لونٌ من الكتابة السياسية الشعبية المباشرة، والتي تَمكَّن المؤلف من خلالها من تسريب جرعة مكثّفة من الأفكار السياسية المهمة، مما يحسُن أن يكون محل تداول بين عامة الناس، طلباً لإصلاح الفضاء السياسي، وتحصين الحريات الفردية، في ظل مهدِّدات حقيقية؛ داخلية وخارجية، تستهدفها.

أما طبيعة المعالجة، فقد أحسن مؤلِّفه جداً في ربط السياق المَعيش اليوم بالسياق التاريخي المتقدّم، ملتقطاً صوراً تاريخية متعددة، تصلح أن تكون هاديةً لنا لتقييم أوضاعنا القائمة، وموجِزاً دروس تلك الصور وعظاتها في عبارات بيِّنة واضحة مركَّزة، ليقدِّم للقارئ في طيات ذلك برامج عملٍ يمكن تفعيلها على المستوى الفردي والجماعي، ومجموعة من الوصايا المهمة التي يجب أن لا نغفَل عنها. فالكتاب يمثل أنموذجاً رائعاً في حسن توظيف التاريخ واستثماره كهادٍ سياسي.

إن هذا الكتاب ـ كما سيتضح لقارئه ـ يُمثل في لبُّه رسالةَ تحذيرٍ ونذيرٍ للمجتمع الأمريكي من تهديدٍ حقيقي يستهدف مناخات الحرية وأجواء الديمقراطية التي يعيشها، محاولاً إزاحة ذلك الوهم الفاسد من نفوس الكثيرين باستثنائية التجربة الأمريكية، وأن تجربتها السياسية تمثل سرديةً حتميةً ونهايةً للتاريخ، مؤكداً أنها ـ كغيرها من التجارب البشرية ـ معرضةٌ للتهديد وعمليات الاستهداف، وأن بإمكانها أن تنزوي من المشهد، راجعةً إلى عالم العدَم كما وجدت من ذلك العالم يوماً.

المشكلة هنا هي في ذلك التصور الساذج الذي يتبنَّاه كثير من الناس لمشهد سقوط الديمقراطية؛ إذ لا يستحضرون منها إلا مشهد السقوط المفاجئ المدوِّي، الذي يصبح فيه المرء في حالةٍ، ليمسي في حالةٍ مناقضةٍ لها تماماً، بانقلاب عسكري مثلاً ينحرف بالمشهد السياسي إلى وجهة جديدة تماماً. لكن التاريخ القديم والحديث يُعلِّمنا أن تغير النظم السياسية لا يلزم أن يكون وفق هذا النموذج وحده، بل يمكن أن ينسلَّ نظام ما من المشهد بهدوء،

وعلى نحو متدرِّج يصعب معه على البعض إدراك ما يجري، فتقع المفاجأة، ولكن بعد فوات الأوان.

ولكن ما لنا ولكاتب أمريكي يوجه رسالة تحذير لبني جلدته؟ وسياقنا غير سياقهم، وأحوالنا مباينة تماماً لأحوالهم؟

وأقول ابتداءً: لا شكَّ في وجود فرقٍ هائلٍ بين برنامج عملي يسعى للمحافظة على مناخات حريةٍ قائمةٍ، وبين مناخات أخر يسعى لابتعاثها للوجود؛ بين سياقٍ يمثل الاستبداد فيها هاجساً يُتخوف منه، وآخر يعيش أصحابه تحت نير مصائبه فعلاً، بل ومن مصائب الظلم والطغيان. فلئن كان المؤلف هنا متخوفاً من الوصول إلى محطة الاستبداد، فإننا قد ترحلنا عن هذه المحطة منذ زمنٍ لنقاسي مرارات الطغيان السياسي.

ولكن هل يعني هذا أن لا فائدة نجنيها من النظر في مثل هذا الكتاب؟

وجوابي بكل وضوح: بلى، فهناك فوائد متعددة تجعل من قراءة هذا الكتاب ولو في ظرفٍ كظرفنا أمراً مشروعاً ومفيداً جداً، ومنها:

رفع الوعي السياسي بطرائق الاستبداد في تثبيت أركانه، وكيف يسعى للتمدد أكثر فأكثر، ليحتل لنفسه مواقع جديدة من حياتنا، لندرك أن كل دَرَكٍ نعيشه في سواد ظله فبالإمكان أن يعقبه درك أشد، وأن كل سوء نعاني منه فقد يعقبه ما هو أسوأ. ولذا فما تجده في هذا الكتاب من نصائح وإرشادات لعرقلة مسار الاستبداد أن يَحِلَّ ويجيء، يمكن استثماره في إعاقة تمدده أيضاً.

كما يمكن استثمار عددٍ من النصائح في التحضير للحظة مفصليةٍ مستقبليةٍ يكتبها الله تقلب الأوضاع رأساً على عقب، أو يحدث أمر يضطر فيه الاستبداد للتخلي عن بعض مواقعه لينسحب منها ويتراجع، فيكون المرء مهيأً معرفياً ونفسياً لأداء الأدوار المطلوبة منه في تلك اللحظة لاستثمارها بدلاً من تفويتها، أو التفاعل معها بطريقة تفوتها أو تجعل الأمور تسوء أكثر.

ثم إن الكتاب تحدث عن أحوال أشخاصٍ عاشوا تحت أنظمة قمعية فعلاً، وكيف تباينت أحوالهم بين أدواتٍ وُظِّفَت واستُعْمِلَت لتثبيت تلك النظم القمعية، وأخرى تسامت عن ذلك الواقع السيئ، وتمكنت من التأثير إيجاباً في المشهد، وهي لقطات مهمة جداً لكل من يعيش في سياقات شبيهة بسياقاتهم. ولئن وثَّق التاريخ تلك اللقطات والمشاهد الإيجابية والسلبية معاً، كما وثَّق فظائع تلك الأنظمة القمعية أيضاً، فأمامنا تاريخ لا يزال مفتوحاً لم يتم توثيقه بعد، والله وحده يعلم كيف سيُكتب تاريخنا من بعدنا.

كما أن الكتاب عالج بعض مظاهر الابتذال السياسي المعاصر وحلَّلَها، وهو ابتذال تتردد أصداؤه بوضوح في محيطنا العربي، كإعادة ترتيب صورة الواقع أو التاريخ بحسب الأهواء الشخصية، تحت لافتة «الحقائق البديلة»، فليس هناك حقيقة موضوعية واحدة يتوارد عليها الناس، بل كلٌّ يصدر عن رأيه ومزاجه، فهناك الحقيقة وهناك الحقيقة البديلة. وهي فكرة أخذت تتمدد وتتسع بشكل ملحوظ وعلى نحو فجٍّ في فضائنا السياسي المعاصر، وما عليك إلا أن تتابع كمية الابتذال والعهر الذي تمارسه القنوات

الإعلامية العربية في التغطية على هذا الداء عبر تعزيزه ودفعه قدُماً ليتم عرضه على الجمهور في ذات القوالب الفجَّة غير المعقلَنة، أو تنظر فيما يتم ترويجه عبر منصات شبكات التواصل الاجتماعي بوساطة تلك الحسابات الوظيفية التي تسعى لمراكمة الأكاذيب بعضها فوق بعض، سعياً لحجب الحقيقة وسحقها. وهذه الممارسات المنحرفة تمثل في الحقيقة أداة مهمةً من أدوات التضليل والدعاية تسمَّى: «خرطوم الأباطيل»[1]، وكلما كان ضخُّ الأكاذيب أقوى وأكثر كان الأثر أشدَّ وأبلغ، وليس مهماً بعد ذلك أن تكون هذه الأكاذيب قابلة للتصديق أو متسقة، فحتى تلك الأكاذيب الفجَّة الواضحة تؤدي دوراً مهماً في تشكيل الرأي العام، خصوصاً إذا تم إشاعتها وترويجها عبر منصات إعلامية كثيرة. ويرى بعض المراقبين أن الأمر لا يعود في الحقيقة إلى محاولة السلطة لإقناع الناس بمفصَّلِ تلك التصورات البديلة، وإنما الغرض هو الكشف عن هيمنة السلطة وقوتها، وأنها ليست محكومة بقيود الواقع، وأن كل شيء مهما بدا بدهياً وواضحاً فبالإمكان تحدِّيه وتجاوزه، فلسان حال السلطة حين تمارس هذا اللون من الأكاذيب وتسعى في ترويجه بين الناس: أعلم بأنكم تعلمون بأن ما أقوله غير صحيح، وأعلم بأنكم تعلمون بأنني أكذب، ولكني أريد أن أؤكد لكم على حقِّي في أن أقول ما أشاء. وهو مشهد هزلي يجعل من اشتباك المرء مع تلك الأكاذيب

---

(١) انظر مقالة: **نموذج الدعاية الروسيّ: «خرطوم الأباطيل»** من الموقع الإلكتروني **مؤسسة راند** عبر الرابط التالي:

< https://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/perspectives/PE100/PE198/RAND_-PE198z2.arabic.pdf >.

الفجَّة، طلباً لفضحها وكشف زيفها، أمراً مهيناً، كما أنه يعبِّر عن خلل في إدراك طبيعة المعركة، وإفراغ للجهد في الموضع الخطأ؛ إذ مقصود السلطة التعبير عن قوتها في اصطناع الواقع الذي تراه، ولن تتمكن من صدِّ قوة الماء المنهمر من خراطيم الأباطيل برذاذ الصدق[٢].

ودعني أكاشف القارئ العربي الكريم بأن مشروع ترجمة هذا الكتاب ابتدأ في أواخر شهر آذار/مارس سنة ٢٠٢٠، وذلك مع تمدد وباء كورونا، الذي امتد تأثيره ليطال صحة الناس، وحيواتهم الاجتماعية والاقتصادية، بل ويُثوِّر في طريقه جدلياتٍ عاصفة في طبيعة النظم السياسية الصالحة لإدارة الناس، لتنتقل عدوى كورونا من فضاء البشر إلى فضاء السياسة، ويصاب بها عدد من النُّظم الديمقراطية في ظل فشلها في إدارة أزمة هذا الوباء، وليركب البعض الموجة ليهريقوا بقية ماء الحياء في نفوسهم، ويدبِّجوا قصائد المديح للنظم الاستبدادية والقمعية وأنها تمثل النموذج الأصلح للحكم.

ولن أتحدث هنا عن دور هذه النظم القمعية في وقوع هذا البلاء وتمدده أصلاً بسياسات تكميم الأفواه والقمع التي مارستها مدةً قبل أن يفتضح الأمر، وتضطر للكلام والحديث. والله وحده يعلم مقدار الحق الذي قالوه وحقيقة الأحوال.

كما لن أحامي عن تلك النظم الديمقراطية؛ إذ هي لا تمثل

---

(٢) يمكن مراجعة هذا المقطع المرئي على شبكة **اليوتيوب**، والذي أنتجته مؤسسة **(VOX)** بعنوان: «**لماذا يصنع الكذب تحديداً بروباغندا عظيمة؟**»:

"Why obvious lies make great propaganda?".

أصلاً مشروعاً نهائيّاً ننشده، بل هي في لُبِّها تعبر عن سعي الإنسان لعزل نفسه عن أن تكون هناك سيادة متجاوزة لذاته يكون لها الحكم عليه.

لكني أودُّ التذكير هنا بخطورة لعبة الثنائيات هذه، والتي تضطرنا للاصطفاف مع خيار معين في ظل ظرف آنيٍّ متوهمين ـ تحت ضغط اللحظة الراهنة ـ بأن لا خيار لنا إلا هذا الخيار. يجب أن ندرك يقيناً بأن الطغيان ليس رُقيةً من مرض، ولا علاجاً من داءٍ، وأن ما يتوهم من حسناته فما هو إلا استثناءٌ مؤكدٌ للقاعدة، والنقطة المشتبهة في الثوب الأسود، وأننا لو قبلنا بهذا المسار كخيار سياسي، وأخذنا نصبغ عليه ألواناً من المشروعية، وجعلناه النموذج المقبول، فسيكون مثل هذا الفيروس هو أهون همومنا على المدى الطويل.

وأستحضر هنا ما يتهامس به كثير من المراقبين والمحلِّلين من تغيير محتمل للنظام العالمي في ظل تداعيات أزمة كورونا، تغدو فيه دول كالصين، بنموذجها السياسي القمعي، قطب رحى يخطف الأضواء. فلكَ أن تتخيل كيف سيكون مشهدنا العربي حين يُحوِّل تحالفاته السياسية من الغرب إلى الشرق، من تحالفات مع نظم تبدي نقداً، ولو شكلياً، لمظاهر الاستبداد والقمع، لتجد فيً تحالفاتها الجديدة داعماً حقيقيّاً لتلك المظاهر.

مشكلة الرضى بنماذج الطغيان هي في التعامل مع الإنسان باعتباره جسداً فقط، تنحصر احتياجاته في المأكل والمشرب ونحوه، دون مراعاة لبعدٍ قيمي لهذا الإنسان، وأن له احتياجات أعظم من هذه ينعتق بها من أن يكون مجرد بهيمة تحركها غريزة

البقاء. وحين أراد الشاعر أن يفحش في الهجاء لم يجد أبلغ من هذه الصورة فقال:

دَعِ المَكارِمَ لا تَرحَل لِبُغْيَتِها
وَاقعُد فإنك أنتَ الطَّاعِمُ الكاسي

فالإنسان مسلوب الحرية، لا يتكلم إلا بإذنٍ وفي حدود مرسومة من قبل طاغية، ولا يؤذَن له بالتحرك إلا وفق مزاج هذا أو ذاك، ليس إنساناً تامَّ الإنسانية. وهذا أمر يدركه كل من به حياة قلبٍ، ولم يُستأسر للعقل المعيشي، الذي يكون فيه محرك الإنسان الأوحد تطلّب العيش، وأي عيشٍ؟ ليس مهماً، المهمُّ أن يحيا ويعيش. إنها حياة لا تصبح فيها لقيمةٍ قدسية، ولا يتصور صاحبها بتاتاً أن يضحي بنفسٍ أو مالٍ أو جهدٍ من أجل مبدأ أو في سبيل قضية، وهذه هوَّة جدير بالإنسان ـ إن كان إنساناً ـ أن يترفع عنها.

مصيبة بعضنا هي في قدسية الحق، بجعله مفصولاً متسامياً عن رغباتنا وأهوائنا وواقعنا، وفي كونه هو الحَكَم على الواقع لا العكس على النحو الذي يفعله الكثيرون حين يقلِبون المعادلة، فيجعلون من الواقع حكَماً يُرَدُّ إليه الحق، بل يجعلون واقع النظم القمعية هو المعبِّر عن الحق، بشعور أحياناً ومن غير شعور. ألا ترى أن السلطة مثلاً حين تُقدِم على عملٍ شرسٍ كاعتقال أو تعذيب أو حتى قتل، يقوم البعض في غيبوبة إيمانه المطلق بهيمنة النموذج السياسي القائم فيبرر لهذه الممارسات القمعية بذرائع شتى تؤول جميعاً إلى جعل الضحية مستحقاً لما ناله ولا بد، ما وجه هذا الاستحقاق وما لونه وريحه؟ لا يدري، لكنه مستحق حتماً؛ إذ السلطة لن تُقدم على فعلها إلا وهو مستحق. المشكلة هنا في تلك الجوعة القائمة بالنفس طلباً للمواءمة بين المشاعر الذاتية

والواقع، وفي سعي الإنسان لعقلنة الواقع والوجود، وجعله مفهوماً ومُدرَكاً، حتى إذا ما اصطدم بواقع غير مفهوم ولا معقلن توتر وانزعج واضطرب، وسعى في ردِّ الواقع إلى صورة مريحة تزيح عنه هذا التوتر والانزعاج. فإذا كانت الشرطة مثلاً ترمز للأمن في وعيه فمن المريح استبقاؤها في ضفة الحق، بدلاً من القفز إلى تلك النتيجة الأصعب على النفس، والاعتراف بأنها وقفت هنا على الضفة المقابلة؛ إذ لهذا الاعتراف ضريبته الباهظة من الإحساس والشعور، وهو يستتبع آثاراً ولوازم خطرة. فلو قدر أن السلطة ظالمة ومعتدية فستنبعث في النفس مشاعر الخوف والتوجس من غيبة الأمن الذاتي، بل يمكن أن تنبعث منها مشاعر الغضب والسخط من هذا الظلم الواقع، وهي مشاعر تشكل عبئاً شديداً على الضمير أولاً، ثم هي تستدعي تضحيةً وإقداماً ثانياً، وقد يكون بذلها صعباً وشائكاً ومعقداً. فليغطِّ الأمر بهذا الستر الرقيق الأسهل: الحكومة أدرى وكفى، وهي لم تقدِم على صنيعها إلا ولها مسوغاتها ولا بد. ومع إعلاء هذا الصوت في نفسه يبدأ بتصديق الكذبة ويتحول لبوقٍ للسلطة، ويمارس التحريض والتشبيح باسمها، فيغدو سبباً من حزمة أسباب في تشوه المشهد السياسي، وسقوطه في مستنقع المكارثية الآسن، وهو ما ساعدت عليه شبكات التواصل الاجتماعي، حيث تحولت في أوطاننا من أدوات تمكن أهلها من إصلاح المشهد السياسي إلى أدوات قمع وملاحقة للمصلحين، ويغدو الصمت فيها علامة تهمة، والغَيبة جريمة، وتنحدر مستويات الحرية لحضيض المطالبة بحرية الصمت[٣].

---

(٣) انظر: علي عزت بيجوفيتش، **هروبي من الحرية: أوراق السجن (١٩٨٣ ـ ١٩٨٨)** (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٥)، ص٣٢٤.

هذه مجرد ملاحظة واحدة من مجموع ملاحظات تُفسِّر لك طرفاً من قبول الكثير للواقع الذي يعيشونه مهما كان قاتماً وبائساً، وكيف يمكن للإنسان أن يتعامى عن المصائب القائمة ويهرب إلى صورة وردية رومانسية حالمة للواقع، ولحسن ظنٍّ غير مستحق للقائد الملهم.

ملاحظة نفسيّة أخرى تتسبب في تثبيت دعائم الاستبداد والأوضاع القائمة، وهي تشرّب الكثيرين لداء الجبرية السياسية، فما أسهل أن تمرر النظم المستبدة تهمة التشوف للسلطة لكل خصومها، وكأنها من حيث هي تهمة لا دافع لها، وثلمة لا تنجبر. تسري هذه التهمة بين الناس، ويرون فيها شيئاً قبيحاً دون أن يسألوا أنفسهم ولو للحظة: هل تثبت مثل هذه التهمة في حق من أسبغت عليه أصلاً؟ فالسلطة في كثير من الأحيان تصفي خصومها معنوياً بهذه التهمة ولو كانوا مجرد دعاة لإصلاح الأوضاع القائمة، ولو لم يخطر لهم على بال مطلقاً أن يتسنموا بشخوصهم موقع السلطة يوماً. أما أن يفكر الجمهور في الوضع السياسي القائم، وما الذي أوجب أن تحتل السلطة القائمة هذا الموقع أصلاً؟! ومن أعطاها حق التسلط على البلاد والعباد؟! ففكرة مرعبة لا يمكن التفكير فيها فضلاً عن أن التسلط على التهمة ذاتها بالمساءلة، وتعريضها للمحاكمة، وعرضها على طاولة التشريح، فما المشكلة في أن يسعى البعض إلى طلب السلطة؟ وما المحذور في ذلك؟ هل المشكلة في ذات السعي أم في صورته وشكله وحقيقته ولبِّه؟ ألا يمكن أن يكون حسناً جميلاً متى كانت بواعثه خيّرة طلباً لخدمة الناس ونفعهم، ونيلت بأدواته المشروعة المقبولة، وأن يكون قبيحاً مذموماً إن كان بوسائل محظورة وبنية

مدخولة، فلا يكون في مجرد طلب السلطة مذمة أو مِدْحة من حيث هي، وإنما هو بحسب بواعثه وأدوات طلبه ثم ما يترتب عليه عملياً على الأرض، وأن يكون لقول النبي ﷺ: «**إنّا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه**»[٤] محلّه القابل له في الواقع، كما أن لقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] محلّه أيضاً.

إن مثل هذا التساؤلات المشروعة يتم طيّها وحبسها وحرمانها من البوح والتداول، وكأن الوضع القائم يكتسب مشروعيته من مجرد قيامه، وكأن الاحتجاج بالقدر على ترك الواقع على ما هو عليه مشروع، وكأننا لم نؤمر بمدافعة القدر بالقدر، وأن إيتاء الله الملك ونزعه ممن يشاء وإن كان بقدر الله تعالى، فهو مما يُطلب بقدره أيضاً.

هذه الملاحظة وغيرها هي ما يصيّر الأكثر للحالة البئيسة التي وصفها الكواكبي حين قال: «العوام هم قوّة المستبد وقوته[٥]، بهم وعليهم يصول ويطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم على بعض، فيفتخرون بساسته، وإذا أسرف في أموالهم، يقولون: كريماً، وإذا قتل منهم ولم يمثل يعدونه رحيماً، ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ، وإن نقم عليهم منهم بعض الأباة قاتلوهم كأنهم بغاة»[٦].

---

(٤) رواه مسلم.

(٥) هكذا هي في الكتاب، ولعلها: وعدته، أو نحو ذلك من الكلمات.

(٦) الكواكبي، **طبائع الاستبداد**، ص٤١.

ومن هنا كان مشروع ترجمة هذا الكتاب، والذي يؤمل أن يوفر مادة سياسية شعبية ترفع من مستوى الوعي السياسي لشريحة اجتماعية واسعة إلى أفق مرتقب، يدرك من خلاله جمهور عريض من الناس مخاطرَ الطغيان والاستبداد والضريبةَ الباهظة التي سيضطرون لدفعها في ظله وأدوات تمدده وطرق مدافعته، طلباً لإصلاح واقع لطالما رزح تحت نير الطغيان، وتحريراً للخلق من عبودية الخلق ليكون الدين كله لله.

تمهيد

التاريخ والطغيان السياسي

مكتبة
t.me/soramnqraa

التغرير بك ليس عذراً في السياسة

لشك كولاكفسكي

التاريخ لا يعيد نفسه، ولكنه يُعَلِّم ويُثَقِّف.

لقد وضع الآباء المؤسّسون نُصْبَ أعينهم استلهام الدروس والعبر في ضوء ما يعرفونه من مجريات التاريخ، وذلك أثناء جدلهم ومداولاتهم التي أقاموها حول دستورنا. لقد كانوا قلقين من أن هذه الجمهورية الديمقراطية الماثلة في مخيلتهم قد تنهار وتضمحل، فسعوا لتقليب النظر في مشاهد سقوط الديمقراطيات والجمهوريات القديمة، وكيف تحولت لإمبراطوريات وحكم أقلية. وقد كانوا على درايةٍ بما حذَّر منه أرسطو من أن انعدام المساواة سيجلب عدم الاستقرار، وبما كان يعتقده أفلاطون من أن بعض زعامات الغوغاء يستغلون حرية التعبير ليُنصِّبوا أنفسهم مستبدين وطغاة.

لقد كان الآباء المؤسسون أثناء تشييدهم لبنيان هذه

الجمهورية الديمقراطية القائمة على حكم القانون ونظام الضوابط والتوازنات يطمعون في تجنب مثل تلك الشرور، والتي كانوا يشاركون الفلاسفة القدماء في تسميتها *بالطغيان*. وكان في حسبانهم أن البعض ـ أفراداً أو جماعات ـ سيسعون لاغتصاب السلطة، أو يتحايلون على القانون ليوظفوه لصالحهم.

لقد كان كثيرٌ من الجدل السياسي في الولايات المتحدة مهموماً بتجليات مشكلة الطغيان والظلم داخل المجتمع الأمريكي، والمتمثل في مشكلة العبيد وقضايا المرأة مثلاً. ولذلك فإن العناية بالتاريخ وأخذ عِظاته في الوقت الذي يبدو فيه نظامنا السياسي مهدداً بخطرٍ ما يُعَدُّ في الحقيقة أحد الأعراف والتقاليد الأمريكية الأساسية.

وإذا كنا نشعر اليوم بالقلق من أن التجربة الأمريكية مهددة بالطغيان، فبإمكاننا أن نسير على ذات الخطوات التي سار عليها الآباء المؤسسون، والنظر في تاريخ الديمقراطيات والجمهوريات الأخرى وإعمال الفكر فيها. الخبر السار أنه بإمكاننا الاستفادة من أمثلةٍ أكثر قرباً ولصوقاً بواقعنا من نموذج روما واليونان القديمة. لكن الأمر المزعج أن تاريخ الديمقراطية الحديث يبدو هو الآخر أنموذجاً للانحسار والسقوط.

منذ أعلنت المستعمرات الأمريكية استقلالها عن الملكية البريطانية، والتي اعتبرها الآباء المؤسسون أنموذجاً «للطغيان»، شهد التاريخ الأوروبي ثلاث لحظات مفصلية ديمقراطية: في أعقاب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، ومع انهيار الشيوعية سنة ١٩٨٩. وقد

آلت كثير من تلك الديمقراطيات الوليدة في تلك الأجواء إلى الفشل في أوضاع مشابهة في بعض نواحيها المهمة لأوضاعنا.

إن التاريخ يمكن أن يكون مألوفاً ويمكن أن يكون نذيراً.

في أواخر القرن التاسع عشر تولّدت عن التوسع في التجارة العالمية توقعات وآمال بالتقدم، تماماً كتلك التوقعات التي عمّت في نهايات القرن العشرين. ثم إنه في بواكير القرن العشرين، كما هي الحال في أوائل القرن الحادي والعشرين، اصطدمت هذه الطموحات والآمال برؤى سياسة جماهيرية جديدة، يدّعي فيها رئيسٌ ما أو حزبٌ معين أنه من يمثل إرادة الشعب. وهكذا انهارت الديمقراطيات الأوروبية لتتحول إلى أنظمة شمولية وفاشية يمينية في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي. وقام الاتحاد السوفياتي الشيوعي، الذي تأسس عام ١٩٢٢، بتوسيع نموذجه داخل أوروبا في أربعينيات القرن العشرين.مكتبة سُر مَن قرأ

يكشف لنا تاريخ القرن العشرين لأوروبا أن المجتمعات ليست آمنة من التفكك، وأن الديمقراطيات يمكن لها أن تسقط، وأن الأخلاق قد تنهار وتتهاوى، وأن رجالاً عاديين قد يجدون أنفسهم واقفين على شفير خنادق الموت، والرشاشات في أيديهم. إنه لمن المفيد لنا اليوم أن نفهم كيف أن الفاشية والشيوعية تمثلان استجابة للعولمة: لمظاهر انعدام المساواة الحقيقية والمحسوسة التي خلقتها، وعجز الديمقراطيات الظاهر عن معالجتها.

الفاشيون رفضوا المنطق والعقل باسم الإرادة، متنكرين للحقائق الموضوعية لصالح أسطورةِ مجدٍ صاغها زعماء ادعوا أنهم المعبرون عن صوت الشعب. وقد قاموا بتصوير تحديات العولمة

المعقدة بأنها تمثل مؤامرة ضد الدولة. لقد حكم الفاشيون لعقدٍ أو عقدين، مخلّفين وراءهم إرثاً فكرياً يزداد مع كل يوم صلةً بواقعنا. أما الشيوعيون فقد حكموا لوقت أطول، قريباً من سبعة عقود في الاتحاد السوفياتي وأكثر من أربعة عقود في أوروبا الشرقية، وقدموا نموذجَ حكم قائماً على حزبٍ منضبطٍ من النخبة المحتكرة لحق تحديد ما يمكّن أن يدفع المجتمع نحو مستقبل معين، وفق مجموعة ثابتة من القوانين المدعاة للتاريخ.

وعلينا أن نحذر، فقد يتم إغراؤنا بفكرة أن إرثنا الديمقراطي محصن ذاتياً وتلقائياً من مثل تلك التهديدات. وهذه ردة فعل مضللة تجاهها. إن السُّنَّة التي وضعها الآباء المؤسسون لنا تتطلب منا في الواقع دراسة التاريخ دراسة متأنية لفهم الأسباب العميقة للحكم الجائر، ولتقليب النظر في أفضل الحلول لمجابهته. والأمريكيون اليوم ليسوا بأكثر وعياً من الأوروبيين في القرن العشرين الذين رأوا الديمقراطية تنجرف نحو الفاشية أو النازية أو الشيوعية. الشيء الوحيد الذي يصب في صالحنا بالمقارنة بهم هو أنه بوسعنا أن نتعلم شيئاً من تجربتهم. ووقتنا هذا وقتٌ جيدٌ للقيام بذلك.

يُقدم هذا الكتاب عشرين درساً من القرن العشرين، ملائمة للظروف والملابسات التي نحياها في أيامنا هذه.

١

لا تعطِ الطاعة مُقدّماً

أغلب القوة التي تحظى بها النظم الشمولية يتم إعطاؤها لها مجاناً. في أوقات كهذه فإن الأفراد يفكرون سلفاً فيما تطمع فيه الحكومات القمعية ثم يقومون بتحقيق تلك المطامع دون أن يُطالَبوا بذلك. والمواطن الذي يتبنى هذا الدور يُنبِّه السلطة لحقيقة قدراتها وما يمكنها القيام به.

الطاعة الاستباقية كارثة سياسية. ولعله لم يدرْ في خلد الحكام ابتداءً أن المواطنين على استعداد لانتهاك تلك القيمة أو ذلك المبدأ. ولعل النظم الحاكمة الجديدة لم تعلم في البداية أن بإمكانها التأثير في المواطنين ليسلكوا هذا الاتجاه أو ذاك.

بعد الانتخابات الألمانية سنة ١٩٣٢، التي سمحت لأدولف هتلر بتكوين حكومته، والانتخابات التشيكوسلوفاكية سنة ١٩٤٦، التي فاز فيها الشيوعيون، كان للطاعة الاستباقية دورٌ حاسمٌ في مجريات الأحداث بعد ذلك؛ وذلك أن عدداً كافياً من الناس في كلتا الحالتين قاموا بتقديم خدماتهم للزعامات الجديدة طوعاً، فأدرك النازيون والشيوعيون على السواء أن بإمكانهم المضي قدماً وبسرعة لتغيير شامل للنظام.

تلك الأعمال الموائمة لأطماع تلك النظم والناشئة عن غفلة أصحابها صارت مستقرة وما عاد بالإمكان التراجع عنها أو قلب تأثيراتها.

وفي الوقت الذي تمكّن فيه أدولف هتلر من بسط سيطرته بالكامل على ألمانيا، بدأ بتهديد جارته النمسا بالاحتلال، وذلك في بواكير سنة ١٩٣٨. وبعد أن اعترف المستشار النمساوي بالتنازل فعلاً لصالح ألمانيا، فإن الطاعة الاستباقية التي بذلها النمساويون هي ما حدد مصير يهود النمسا بعد ذلك؛ فقد قام

النازيون المحليون من النمساويين بالقبض على اليهود، وإكراههم على تنظيف الشوارع، وإزالة كل شعارٍ من شعارات النمسا المستقلة. الأمر اللافت والأكثر أهمية هو في موقف أولئك الذين لم يكونوا نازيين، فقد كانوا يتابعون هذه المشاهد باهتمام واستمتاع. لقد كان النازيون يحتفظون بقوائم لممتلكات اليهود، وبدؤوا الآن بسرقة جميع ما قدروا عليه. اللافت أن الآخرين، والذين لم يكونوا نازيين، شاركوهم في ذلك. كان المشهد وفق ما تتذكره المنظّرة السياسية حنة آرنت: «عندما غزت القوات الألمانية البلاد، وبدأ جيران اليهود من غير اليهود أعمال الشغب عند بيوتهم، بدأ يهود النمسا بالانتحار».

الطاعة الاستباقية التي بذلها النمساويون في آذار/مارس من سنة ١٩٣٨ علّمت القيادات العليا النازية ما كان ممكناً لهم صنعُه. فقد قام أدولف آيخمان في فيينا، وتحديداً في شهر آب/أغسطس من تلك السنة، بتأسيس المكتب المركزي للهجرة اليهودية. وفي تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٣٨، وجرياً على النموذج الذي أقامه النمساويون في شهر آذار/مارس، نظّم النازيون الألمان برنامجاً وطنياً عرف **بليلة البلور**(*).

وحين غزا الألمان الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٤١، قامت وحدات الأس أس (SS)(**) بمبادرة ذاتية تتضمن ابتكار وسائلَ

(*) هو عبارة عن برنامج تم تنفيذه بين التاسع والعاشر من تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣٨ ضد بيوت اليهود ومصالحهم في ألمانيا، حيث أحرقت ودمرت كثير من ممتلكات اليهود من قِبل النازيين، وسميت بهذا الاسم من كثرة الزجاج المهشم في تلك الليلة. (المترجم)

(**) هي منظمة شبه عسكرية عرفت بوحدات شوتزشتافل أو إس إس، قادها هتلر والحزب النازي، أدت أدواراً مهمة في الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

لتنفيذ مذابح جماعية من غير أن يُطلب منها ذلك أصلاً. لقد خمنوا ما كان يدور في خلد رؤسائهم، وأحبوا إبراز ما يمكن تنفيذه فعلاً. وقد كان الأمر أكثر مما كان يتوقع هتلر أنه ممكن.

عند النظرة الأولية فإن الطاعة الاستباقية تعني بيُسرٍ: التكيف مع وضعية جديدة على نحو عفوي ودون تفكير.

ولنا أن نتساءل: هل الألمان وحدهم من يقومون بمثل هذه الأفاعيل؟

عالم النفس من جامعة ييل ستانلي ميلغرام، والذي كان مهموماً بجرائم النازيين، أراد أن يكشف أن هناك نوعاً محدداً من الشخصية السلطوية يمكنها أن تفسر لنا لماذا تصرف الألمان على النحو الذي وقع منهم. وضع تجربة لاختبار فرضيته، لكنه فشل في الحصول على إذنٍ بتنفيذها في ألمانيا. ولذا فقد قام بتنفيذها في أحد مباني جامعة ييل في سنة ١٩٦١، في ذات الوقت تقريباً الذي كان فيه أدولف آيخمان يُحاكَم في القدس عن دوره في محارق النازية ضد اليهود.

أخبر ميلغرام المشاركين في التجربة، الذين كان بعضهم طلاباً من جامعة ييل، وبعضهم من سكان نيوهيفن، بأنهم سيقومون بصعق طرف آخر في تجربة تدور حول العملية التعليمية. وفي الحقيقة فإن أولئك الذين كانوا موصولين بتلك الأسلاك من الضفة الأخرى من النافذة إنما كانوا يتظاهرون فقط بالصعق. وبينما كان أولئك المشتركون في التجربة يظنون بأنهم يصعقون أولئك الذي ظنوهم مشاركين معهم في تلك التجربة فعلاً، فقد رأوا منظراً مروعاً؛ كانوا يرون أناساً لا يعرفونهم، وليس لديهم

أية حزازات تجاههم، يتألمون بشدة، ويضربون على الزجاج مشتكين من آلام القلب. ومع ذلك فإن معظم أولئك المشاركين استمروا فيما ظنوه عملية الصعق بجرعات أكبر فأكبر، إلى الحد الذي ظهرت فيه ضحاياهم وكأنهم قد ماتوا. وحتى أولئك الذين لم يستمروا في عملية الصعق إلى مرحلة قتل شركائهم في البشرية خرجوا دون أن يسألوا عن حالهم أو عن صحتهم. لقد أدرك ميلغرام أن البشر لديهم قابلية كبيرة وبدرجة ملحوظة لقبول أي قواعد جديدة متى ما وضعت في سياق جديد. إنهم، وعلى نحو مفاجئ، يبدون قابلين لإلحاق الأذى وقتل الآخرين في خدمة غاية جديدة متى ما أمروا بذلك من قبل سلطة حديثة. «لقد وجدت كمّاً من الرضوخ والطاعة»، يتذكر ميلغرام: «على النحو الذي لم أرَ فيه أن هناك كبير حاجة لإجراء التجربة في ألمانيا».

٢

دافع عن المؤسسات

إن المؤسسات هي التي تساعدنا على المحافظة على انضباطنا. وهي تحتاج إلى مساعدتنا أيضاً. لا تتحدث عن «مؤسساتنا» ما لم تجعلها جزءاً من حياتك بالعمل بما يصب في مصلحتها. المؤسسات لا تحمي نفسها. إنها تتهاوى الواحدة تلو الأخرى ما لم ندافع عن كل واحدة منها منذ البداية. ولذا فاختر مؤسسةً مما تحظى باهتمامك ـ محكمة، صحيفة، قانون، نقابة عمالية ـ وناصرها.

نميل إلى افتراض أن المؤسسات ستحمي نفسها تلقائياً ضد جميع الهجمات الموجهة لها، حتى تلك التي تستهدفها بشكل مباشر. وهذا بالضبط هو الخطأ الذي وقع فيه بعض اليهود الألمان حول هتلر والنازيين بعدما تمكنوا من تشكيل الحكومة.

فعلى سبيل المثال، نشرت إحدى الصحف الرائدة لليهود الألمان افتتاحيةً لعددها الصادر في الثاني من شباط/فبراير سنة ١٩٣٣، وهي افتتاحية تعبر عن حالة وضع الثقة في غير محلها:

إننا لا نؤيد وجهة النظر التي تدعي بأن السيد هتلر وأصدقاءه، وقد وصلوا أخيراً إلى السلطة التي لطالما طمعوا فيها، سيتمكنون من تنفيذ مقترحاتهم التي تم نشرها وتداولها عبر الصحف النازية، إنهم لن يتمكنوا فجأة من حرمان اليهود الألمان من حقوقهم الدستورية، أو تجميعهم في غيتوهات معزولة، أو تمكين الرعاع المحركين بالحسد والدوافع الإجرامية منهم. إنهم لن يتمكنوا من كل هذا لأن هناك عدداً من المعاملات المهمة التي تضبط السلطة من الانحراف... ومن الواضح تماماً أنهم غير راغبين في سلوك هذا الطريق. حين يعمل الواحد كقوة أوروبية، فإن المناخ السائد سيدفعه نحو مراجعةٍ أخلاقيةٍ وفق أحسن قيمه الذاتية، وسينصرف عن معاودة تبني مواقفه الصادمة السابقة.

هكذا كانت رؤية العديد من العقلاء سنة ١٩٣٣ للمشهد، كما

أنها هي ذات الرؤية التي يتبناها كثير من عقلاء اليوم أيضاً. الخطأ هنا يكمن في افتراض أن الحكام الذين يصلون إلى السلطة من خلال المؤسسات لا يمكنهم تغيير خط تلك المؤسسات أو تدميرها، حتى وهم يصرحون بأن ذلك بالضبط هو ما ينوون فعله. إن الثوار أحياناً ينوون أن يدمروا جميع المؤسسات دفعةً واحدة. وهكذا كانت مقاربة ثوار روسيا البلشفية.

إن المؤسسات تُحرم أحياناً من أداء أنشطتها ووظائفها، لتتحول إلى مجرد كيانٍ خاوٍ ونسخة مزيفة عما كانت عليه يوماً، ثم تُوظَّف كإحدى أدوات تثبيت النظام الجديد، بدلاً من أن تكون أداة لعرقلته. وهذا ما كان يسميه النازيون عملية التنسيق. وقد استغرق الأمر أقل من سنة ليوطد النظام النازي الجديد أركانه.

مع نهاية سنة ١٩٣٣ أصبحت ألمانيا دولة حزبٍ واحدٍ، وتضاءلت في ظله جميع المؤسسات الكبرى. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من تلك السنة، أقام المسؤولون الألمان انتخابات برلمانية (من غير معارضة) وقدموا استفتاءً عاماً (حول مسألة كانت الإجابة المطلوبة معلومة للجميع) لتثبيت النظام الجديد.

بعض اليهود الألمان صوتوا وفق رغبات القيادات النازية على أمل أن تمثل هذه المبادرة نوعاً من الولاء، والتي من شأنها تشكيل رابطة بينهم وبين النظام الجديد. لقد كان ذلك مجرد أمانٍ فارغةٍ.

٣

احذر من دولة الحزب الواحد

الأحزاب التي أعادت تشكيل الدول وقامت بقمع خصومها لم تكن في تمام القدرة على ذلك من البداية، وإنما استغلت لحظة تاريخية لجعل حياة خصومها مستحيلة. ولذا ادعم نظام الأحزاب المتعددة، ودافع عن قواعد الانتخابات الديمقراطية. قم بالمشاركة في الانتخابات المحلية وعلى مستوى الدولة. فكر في الترشح للرئاسة.

لعل توماس جيفرسون لم يقل يوماً: «اليقظة الدائمة هي ثمن الحرية»، لكن عدداً من الأمريكيين الآخرين في حقبته حتماً فعلوا. حين نتأمل في هذه المقولة اليوم، فإننا نتصور أن يقظتنا الخيّرة هذه ينبغي أن تكون مصروفة للخارج، ضد تهديدات الآخرين أياً من كانوا، سواءً كانوا أعداءً أو حتى أشخاصاً مضللين.

إننا ننظر لأنفسنا كما لو أننا مدينة على تلّة، قلعة من قلاع الديمقراطية، نقف على أهبة الاستعداد لأي هجمات قادمة من الخارج. ولكن روح تلك المقولة مختلف كلياً عن هذا: فالطبيعة البشرية مركبة على نحو يجعل من حماية الديمقراطية الأمريكية أمراً متحتماً من *أولئك الأمريكيين* الذين يريدون استغلال حرياتها لطي صفحتها.

في الواقع فإن الأمريكي وندل فيليب، الذي كان أحد دعاة إلغاء الرق، هو صاحب كلمة: «اليقظة الدائمة هي ثمن الحرية»، لكنه أضاف إليها أخرى: «المنّ المستفاد من الحرية العامة يجب تجميعه يوميّاً وإلا فإن مآله إلى التعفن». وسجل الديمقراطية الأوروبية الحديثة يؤكد حكمة هذه الكلمات.

فقد شهد القرن العشرون محاولات جادة لتوسيع نطاق حق التصويت، وبناء ديمقراطيات مستدامة. ولكن تلك الديمقراطيات

التي نمت في أعقاب الحرب العالمية الأولى (والثانية) انهارت غالباً بمجرد تولي حزب واحد للسلطة بمزيج من الانتخاب والانقلاب. فحين يكتسب حزبٌ ما الجرأة الكافية بفعلِ انتخاباتٍ مواتية، أو بدوافع أيديولوجية، أو بهما معاً، فإنه قد يسعى لتغيير النظام من الداخل.

عندما حظي الفاشيون والنازيون بنتائج جيدة في انتخابات ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، فإن ما تبع فوزهم كان مزيجاً من الاستعراض، والقمع، وتكتيكات التفريق، والذي مكنهم شيئاً فشيئاً من سلخ المعارضة. لقد كان معظم الناس مشتتي الانتباه، والبعض كان مسجوناً، وآخرون وقفوا أمام ما يجري عاجزين.

جاء على لسان بطل رواية ديفيد لودج: إنك حين تمارس الجنس للمرة الأخيرة فإنك لا تدري بأنك تمارسه للمرة الأخيرة. إن التصويت في الواقع مشابه لهذا. فبعض الألمان الذين صوتوا للحزب النازي في عام ١٩٣٢ كانوا مدركين بلا شك أنه من المحتمل أن تكون هذه آخر انتخابات حرة وذات معنى لبعض الوقت، لكن الأغلبية لم يكونوا على وعي بذلك. ولربما كان بعض التشيك والسلوفاك الذين صوتوا للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في عام ١٩٤٦ مدركين بأنهم يصوتون لنهاية الديمقراطية، لكن الأكثرية كانوا يفترضون أن أمامهم فرصة أخرى. ولا شك أنه لم يدرْ بخلد الروس الذين صوتوا في عام ١٩٩٠ بأن تلك الانتخابات ستكون آخر عملية انتخابية حرة ونزيهة في تاريخ بلادهم، والتي كانت (وحتى الآن) كذلك. إن أية انتخابات يمكن أن تكون الأخيرة، أو على الأقل الأخيرة بالنسبة إلى حياة شخص يضع صوته في صندوق الانتخاب.

لقد بقي النازيون في السلطة إلى أن خسروا حرباً عالمية في ١٩٤٥، كما استمر شيوعيو تشيكوسلوفاكيا في السلطة إلى انهيار النظام في ١٩٨٩. ونموذج الحكم الروسي القائم على أقلية من أهل النفوذ نشأ بعد انتخابات ١٩٩٠ واستمر فاعلاً حتى اليوم، وهو يتبنى سياسة خارجية مصممة لتدمير النظم الديمقراطية في البلدان الأخرى.

والسؤال الذي يهمنا: هل يمكن أن ينطبق تاريخ الطغيان على الولايات المتحدة أيضاً؟

من المؤكد أن أولئك الأمريكيين الأوائل الذين تحدثوا عن «اليقظة المستمرة» كانوا سيجيبون بنعم. فمنطق النظام الذي أقاموه إنما صُمِّمَ بطريقة تخفف من عواقب عيوبنا الحقيقية، لا الاحتفاء بكمالاتنا المتوهمة. إننا حتماً نواجه اليوم ما واجهته الحضارة الإغريقية القديمة، أعني مشكلة حكم الأقلية ذات النفوذ، والتي تتنامى كمهددٍ حقيقي في ظل عولمة تزيد من فَرْقِ الثروة بين الطبقات.

إنها لفكرة أمريكية غريبة، تلك الفكرة التي تقول بأن إعطاء المال للحملات السياسية هو نوعٌ من حرية التعبير، والذي يؤول في الواقع إلى إعطاء الأثرياء جداً نصيباً أوفر من التعبير، وبالتالي يملكون قوة تصويت أعلى بكثير من بقية المواطنين.

إننا نعتقد بأن لدينا نظاماً محكوماً بالضوابط والتوازنات، ولكن قلما واجهنا وضعاً كالوضع الراهن: فالحزب الذي يحظى بشعبية أقل من الحزبين لديه السيطرة على كل ذراع من أذرع السلطة على المستوى الفدرالي، إضافة إلى الأغلبية في المجالس

التشريعية. وهذا الحزب الذي يتمتع بهذه القوة يقدم في الواقع عدداً قليلاً من السياسات المتجاوبة مع رغبات المجتمع بشكل عام، كما يطرح كثيراً من السياسات غير المرحَّب بها على المستوى الشعبي، فمن الطبيعي أن يخشى من الديمقراطية أو يسعى في إضعافها.

حكمة أمريكية مبكرة أخرى تقول: «حينما تنتهي الانتخابات السنوية يبدأ الطغيان». هل سننظر مستقبلاً لانتخابات ٢٠١٦ على النحو الذي نظر فيه الروس لانتخابات ١٩٩٠، أو التشيك لانتخابات ١٩٤٦، أو الألمان لانتخابات ١٩٣٢؟

إن هذا يعتمد في الوقت الحاضر علينا.

هناك الكثير مما يتعين فعله لإصلاح نظام الدوائر الانتخابية لأجل أن يكون لكل مواطن صوت واحد مساوٍ لصوت غيره، وأن يتم عدّ كل صوت من خلال شريك في الوطن. إننا بحاجة لأوراق اقتراع، لأنها وبكل بساطة لا يمكن التلاعب بها عن بعد، ويمكن إعادة فرزها وعدّها. وهذا العمل يمكن القيام به على المستوى المحلي وعلى مستوى الولاية.

يجب أن نكون على ثقة بأن انتخابات ٢٠١٨ ـ على افتراض أنها ستحصل فعلاً ـ ستكون اختباراً للتقاليد الأمريكية. لذلك فهناك الكثير مما يجب القيام به في الوقت الحالي.

٤

تحمّل مسؤولية صورة العالم

الرموز الحاضرة اليوم هي ما يخلق صورة المستقبل. تنبه للصلبان المعقوفة وبقية رموز الكراهية. لا تشح بوجهك عنها، ولا تعتد على مشهدها. أزلها بنفسك، وكن قدوة للآخرين في ذلك.

الحياة مُسَيَّسة، لا لكون العالم يكترث بمشاعرك، وإنما بسبب تفاعله مع تصرفاتك. الخيارات الصغيرة التي نتخذها تمثّل في الواقع لوناً من التصويت، وهي ما يجعل إمكانية إقامة انتخابات عادلة ونزيهة في المستقبل أمراً أشد أو أضعف.

في السياسة اليومية، فإن حضور كلماتنا وإيماءاتنا أو غيابها له أثر بالغ. وهو ما يمكن تلمسه من خلال عدد قليل من الأمثلة الحادة (والأقل حدةً) من القرن العشرين.

في الاتحاد السوفياتي، وتحت حكم جوزيف ستالين، صُوِّرَ المزارعون المرفهون كخنازير على لوحات البروباغندا، وهو ما يستبطن تجريداً لهم من آدميتهم بما يشير بوضوح في سياق ريفي إلى الذبح. كان هذا في ثلاثينيات القرن العشرين، حين كان الاتحاد السوفياتي يسعى في إحكام قبضته على الريف ليستخرج منه رأسمالٍ يضخه في مشاريع التصنيع الضخمة. الفلاحون الذين كانوا يملكون أراضيَ واسعة أو ماشية أكثر من غيرهم هم من خسروا جميع ما يملكون أولاً. إن ذلك الجار الذي يتم تصويره على صورة خنزير هو شخص جدير بأن تغتصب أرضه. لكن أولئك الذين اتبعوا منطق هذه الرمزية أصبحوا بدورهم ضحايا أيضاً. فبعد أن تمكن السوفيات من تجييش الفلاحين ضد الأثرياء، تمكنوا من وضع يدهم على أراضي الجميع وضمها في مزرعة جديدة موحدة. وحين اكتملت عملية تجميع الأراضي بهذه

الطريقة، حلّت المجاعة بكثير من الفلاحين السوفيات. لقد مات ملايين من السوفيات الأوكرانيين، والكازخستانيين، والروس بطريقة بشعة ومخزية في المدة بين ١٩٣٠ و١٩٣٣. وقبل أن تنتهي المأساة كان المواطنون السوفيات يشرّحون جثث الموتى طلباً للحم.

وبينما كانت المجاعة تبلغ ذروتها في الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٣٣، كان الحزب النازي يحث الخطا ليصل إلى السلطة في ألمانيا. وفي نشوة الانتصار، حاول النازيون تنظيم مقاطعة للمحلات اليهودية. وهو أمر لم يكن ناجحاً في البداية، لكن صبغ نوافذ المحلات بما يكشف عن هوية ملّاكها: هذه ليهودي وتلك لآري، أثرت في طريقة تفكير الألمان في اقتصاديات الأسر والعوائل. فالمحل الذي وضع عليه رمز «يهودي» لم يكن له مستقبل، بل أصبح موضعاً للأطماع.

وبينما كان يتم تمييز الممتلكات بناء على أسس عرقية، بدأ الحسد يعمل عمله في إعادة تشكيل الأخلاق. فإن أمكن أن تكون المحلات «يهودية» فماذا عن الشركات الأخرى والعقارات؟ لقد كانت الرغبة في اختفاء اليهود، والتي ربما كبتت في البداية، تتصاعد الآن تحت سطوة الطمع. وهكذا فإن الألمان الذين وضعوا تلك الشارات على محلات اليهود شاركوا في عمليةٍ أدت إلى اختفاء اليهود فعلاً، وكذا شاركهم أولئك الذين وقفوا متفرجين. فمجرد تقبل وجود تلك العلامات كجزء طبيعي من مشهد المدينة أضحى جزءاً من تسوية أدت في النهاية إلى مستقبل إجرامي.

ولذا فقد تتعرض في يوم ما لفرصة إظهار بعض الرموز المعبرة عن ولائك. تأكد حينها من أن تلك الرموز تسهم في توسيع دائرة المواطنين بدلاً من إقصائهم. فحتى تاريخ تلك الشارات الموضوعة على المعاطف لم يكن بريئاً أبداً.

لقد كان الناس في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ يلبسون شارة «نعم» على معاطفهم مدة الانتخابات والاستفتاء الذي ثبت أركان دولة الحزب الواحد. وفي النمسا سنة ١٩٣٨، بدأ الأشخاص الذين لم يكونوا نازيين من قبل بارتداء الصلبان المعقوفة. إن ما قد يبدو كبادرة للفخر والاعتزاز قد يكون في الحقيقة مصدراً للإقصاء والإبعاد.

في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي اختار بعض الناس في أوروبا ارتداء الصلبان المعقوفة، فاضطر آخرون لارتداء نجمات صفراء. وفي التاريخ المتأخر للشيوعية، حين فقد الجميع إيمانه بالثورة، نجد درساً أخيراً عن الرموز. فحتى حين يصاب المواطنون بالإحباط، ويتمنون أن يُترَكوا وشأنهم، فإن العلامات العامة بإمكانها أن تحافظ على بقاء نظام مستبد.

عندما فاز الشيوعيون في تشيكوسلوفاكيا بالانتخابات سنة ١٩٤٦، ومضوا لبسط أيديهم على السلطة بالكامل عبر انقلاب ١٩٤٨، كان الكثير من المواطنين في حالة ابتهاج عارمة. وقد حاول المفكر المنشق فاتسلاف هافل في كتابه «**قوة المستضعفين**» أن يشرح بعد ثلاثة عقود من ذلك الفوز، أي في سنة ١٩٧٨، فكرة استمرارية نظام قمعي في البقاء مع قلة المؤمنين بأهدافه وأيديولوجيته.

قدم مثالاً لبائع خضروات يضع لوحة عند نافذة المحل مكتوباً فيها: «يا عمال العالم اتحدوا!». إن هذا الرجل حين يفعل ذلك لا يعبر عن تأييد فعلي لمضمون هذا الاقتباس من *البيان الشيوعي*، وإنما يضع تلك اللوحة من أجل أن يتمكن من أن ينسحب من المشهد بهدوء، ويعيش حياته اليومية بعيداً عن أي مشاكل مع السلطات. وحين يتبع الجميع ذات المنطق فإن الفضاء العام يصير متخماً باللوحات الدالة على الولاء، وتكون المقاومة أمراً مستحيلاً.

وكما ينبه هافل قائلاً:

رأينا كيف أن المعنى الحقيقي للشعار الذي وضعه بائع الخضروات لا صلة له مطلقاً بما ينص عليه هذا الشعار فعلاً. ومع ذلك فإن المعنى الحقيقي واضح تماماً ومفهوم بشكل عام لأن الشفرة مألوفة على نحو كبير: بائع الخضروات يعلن ولاءه للنظام الحاكم بالطريقة الوحيدة التي يمكنها سماعه، وذلك بوساطة هذا الطقس المحدد، وجعل المظاهر هي المعبر الحقيقي عن الواقع، وقبول قواعد اللعبة المعطاة، وهو ما يجعل اللعبة قابلة للاستمرار، بل هو ما يجعلها موجودة من الأساس.

يتساءل هافل بعدها: ما الذي يحدث إن لم يلعب أحد هذه اللعبة؟.

٥

تذكر أخلاقيات المهنة

حين تمثل القيادات السياسية نماذج سلبية فإن الالتزام بالقيم المهنية يكون أكثر أهمية. إنه لمن الصعب تقويض دولة القانون دون محامين، أو إقامة محاكمات صورية دون قضاة. فالمستبدون بحاجة إلى موظفين مدنيين راضخين لهم، كما أن المسؤولين عن معسكرات السخرة يفتشون عن رجال أعمال يطمعون في عمالة رخيصة.

قبل الحرب العالمية الثانية كان هناك شخص اسمه هانز فرانك، وقد كان محامياً شخصيّاً لهتلر. وبعد غزو ألمانيا لبولندا سنة ١٩٣٩، أصبح فرانك حاكماً لبولندا المحتلة، والتي أضحت مستعمَرةً ألمانية أُعدِم فيها ملايين اليهود مع غيرهم من المواطنين البولنديين. تفاخر مرةً بأنه لا توجد أشجار كافية لإنتاج ورق الملصقات المحتاج إليها للإعلان عن قوائم الإعدام. وقد كان يزعم بأن وظيفة القانون هي خدمة العِرق، وبالتالي فكل ما من شأنه خدمة العرق فهو في الحقيقة يمثّل القانون. وبمثل هذا النمط من الحجج كان في مقدور المحامين الألمان إقناع أنفسهم بأن القوانين والنظم إنما وُجدت من أجل تعزيز مشروعاتهم القائمة على فكرة الغزو والتدمير.

لقد اختار هتلر للإشراف على ضم النمسا إلى ألمانيا رجلاً يُدعى آرثر زايس إنكفارت، وقد كان محامياً هو الآخر، وقد تولى لاحقاً مسؤولية إدارة أمر احتلال هولندا. وفي الواقع فقد كان المحامون يشكلون عدداً مفرطاً من قيادات كتيبة القتل المتنقلة (*آينساتزغروبين*)، وهي الكتيبة المسؤولة عن عملية القتل الواسعة التي طالت اليهود، والغجر، والنخبة البولندية، والشيوعيين، والمعوّقين، وغيرهم. كما شارك الأطباء من الألمان (وغيرهم) في تجارب طبية مروعة في معسكرات السخرة. وكذا استغل رجال

أعمال من شركة إي غه فاربن(*) وغيرها من الشركات الألمانية السجناء في معتقلات السخرة، واليهود في مناطقهم المعزولة، وأسارى الحرب ليستفيدوا منهم كعمالة رخيصة. وقد أشرف على هذه الأعمال جميعاً ووثّقها موظفو السِّلْك المدني، من الوزراء وحتى موظفو السكرتارية.

ولو أن المحامين التزموا بالقوانين الاعتيادية: لا إعدام دون محاكمة، ولو أن الأطباء قبلوا بمبدأ: لا عمليات جراحية دون موافقة، ولو أن رجال الأعمال صادقوا على المنع من الاستعباد، ولو أن البيروقراطيين رفضوا التعامل مع أي أوراق تخص القتل؛ لصعب على النظام النازي أن يمارس تلك الفظاعات التي نتذكرها جميعاً.

إن المهن يمكنها إيجاد أنماط من المداولات الأخلاقية التي تبدو مستحيلة بين فرد منعزل وحكومة نائية. ولو أن أصحاب المهن نظروا إلى أنفسهم باعتبارهم مجموعات ذات همّ مشترك، محكومة بقواعد ومعايير تضبطهم طوال الوقت، فإن بإمكانهم أن يحظوا بثقة عالية، وبالتالي نوعاً معيناً من القوة.

إن أخلاقيات المهنة يجب أن تكون هادية لنا، خصوصاً في الأوقات التي يقال لنا فيها إن الأوضاع استثنائية. إنه لا مشروعية مطلقاً لعبارة من جنس: «اتبع الأوامر فقط». ومتى ما خلط أصحاب المهن بين محدداتهم الأخلاقية وعواطفهم اللحظية فسيجدون أنفسهم يقولون أشياء ويفعلون أموراً كانوا يظنون أنه من المستحيل أن تصدر عنهم.

(*) هي شركة ألمانية رائدة في مجال الصناعات الكيميائية. (المترجم)

٦

كن على حذر من القوى شبه العسكرية

حين ترى رجالاً مسلحين ممن كانوا يصرّحون دوماً بأنهم ضد النظام يبدؤون بارتداء زي موحد، ويمشون في مسيرات يحملون المشاعل في أيديهم ويرفعون لافتات تحمل صورَ قائدٍ ما، فاعلم أن النهاية قد اقتربت. وحين تمتزج قيادات تلك القوى شبه العسكرية مع قوات الشرطة والجيش فاعلم أن النهاية قد حلت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تسعى معظم الحكومات في غالب الأوقات إلى احتكار العنف. فإذا كانت الحكومات وحدها من يحق لها استخدام القوة، وهو استخدام محكوم بالقانون، فإن مظاهر السياسة التي نأخذها مسلمةً تصبح ممكنة.

إنه لمن المستحيل أن نقوم بانتخابات ديمقراطية، أو ننظر في القضايا في المحاكم، أو نضع ونطبق القوانين، أو ندير أيّاً من وظائف الحكومة في الوقت الذي تكون فيه أجهزةٌ خارج نطاق الدولة قادرةً أيضاً على ممارسة العنف.

ولهذا السبب تحديداً، فإن الأشخاص والأحزاب الذين يرغبون في تقويض الديمقراطية وحكم القانون ينشئون ويمولون منظمات عدوانية تقوم بإقحام نفسها في مجال السياسة. يمكن لهذه المجموعات أن تأخذ شكل جناحٍ شبه عسكريٍّ لحزب سياسي ما، أو حراسة شخصية لسياسيٍ معين، أو مبادرات عشوائية لمجموعةِ مواطنين تم الترتيب لها في الحقيقة من خلال حزب معين أو قائد من قواده. وهذه المجموعات المسلحة تبدأ بحلحلة نظامٍ سياسيٍّ ما، ثم تقوم بتحويله بالكامل.

المجموعات اليمينية العنيفة مثل الحرس الحديدي في رومانيا، التي ظهرت في زمنٍ ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أو سهم الصليب في المجر، التي برزت في الفترة نفسها

قامت جميعاً بترويع خصومها. وكذا جنود العاصفة النازيون إنما بدؤوا كفريق أمنٍ خاصٍّ يخلون الممرات من خصوم هتلر في أثناء مسيراته. وحين ظهرت فرق شبه عسكرية عُرفت بالأس أي (SA)(*) والأس أس (SS) خلقت مناخاً من الخوف ساعد الحزب النازي في الانتخابات البرلمانية لسنتي ١٩٣٢ و١٩٣٣.

فقد استغل فريق الأس أي المحلي بالنمسا سنة ١٩٣٨ فرصة غياب السلطة المحلية المعتادة للنهب والسلب، والاعتداء على اليهود وإهانتهم، مغيرين بالتالي قواعد المشهد السياسي، وليكون الطريق موطئاً للنازيين للاستيلاء على البلاد.

أما فريق الأس أس فقد كان هو المسؤول عن إدارة معسكرات السخرة الألمانية وتشغيلها، وهي مناطق خارج إطار القانون، حيث لا تسري القوانين المعتادة فيها. وقد قامت وحدات منه خلال الحرب العالمية الثانية بمدّ رواق غيبة القانون في تلك المعسكرات لتشمل دولاً أوروبية بالكامل كانت واقعةً تحت الاحتلال الألماني. لقد بدأت الأس أس كمنظمة خارج إطار القانون، لتصبح بعد ذلك منظمة متعالية على القانون، ولينتهي الأمر بها لتكون المنظمة التي حلّت عُرى القانون.

وإذا نظرنا في واقعنا فسنجد أن الحكومة الفيدرالية الأمريكية تستخدم المرتزقة في الحروب، كما أن حكومات الولايات المختلفة تدفع أموالاً لشركات تشغيل السجون، ولذا فالواقع يشهد

(*) هي كتيبة شبه عسكرية للحزب النازي، عرفت بكتيبة العاصفة، ولها دور مهم في صعود أدولف هتلر والحزب النازي للسلطة. (المترجم)

بأن استعمال العنف في الولايات المتحدة تم خصخصته فعليّاً وعلى نحو مرتفع.

ما يعد أمراً غريباً ومستجدّاً في نفس الوقت هو وجود رئيسٍ في المكتب البيضاوي يتمنى استبقاء فريق أمني شخصي كان قد استعمل القوة فعلاً ضد معارضيه في حملاته الانتخابية؛ وذلك أنه وأثناء ترشحه للرئاسة أمرَ فريقاً أمنيّاً خاصّاً بإخلاء حملاته الانتخابية من أي معارضين، بل شجع الجمهور بنفسه لإزالة أي شخص يُعبر عن وجهات نظر مختلفة.

يبتدئ الأمر باستقبال أولئك المعارضين باستهجان عبر رفع الصوت بـ«بوو»، لتتعالى الصرخات المحمومة بعدها بـ«يو أس أي» «USA»، ولينتهي الأمر بطرد أولئك من المكان بالقوة. في أحد تلك التجمعات الانتخابية قال المرشح الانتخابي: «هناك فضلة متبقية، لعلكم تخرجون هذه الفضلة للخارج، أخرجوا هذه الفضلة للخارج». وقد تلقى الجمهور الإشارة، فقاموا بالسعي لاجتثاث أي شخص يشتبه في كونه معارضاً، كل ذلك وأصواتهم تتعالى بـ«يو أس أي»، ليعلق هذا المرشح على المشهد بقوله: «أليس هذا أكثر تسلية من الحملات الانتخابية المملة؟ بالنسبة إليّ فإن الأمر يبدو مسلياً». لقد كان المقصود من هذا اللون من عنف الغوغاء تغيير الجو السياسي، وهو ما حصل فعلاً.

ولكي يتمكن العنف ليس من تغيير الجو فقط، وإنما تغيير النظام نفسه، فإن المشاعر والعواطف في تلك التجمعات، وأيديولوجيات الإقصاء، يجب أن تُدرج ضمن إجراءات التدريب للحراسات الأمنية المسلحة، حيث تقوم بتحدي قوات الشرطة والجيش أولاً، ثم تخترقهما، لينتهي الأمر بتحويلهما بالكامل.

٧

كن متحوطاً إن اضطررت إلى حمل السلاح

إن كنت ممن يحمل السلاح في الخدمة العامة، فعسى أن يحفظك الله ويبارك فيك. ولكن تذكر بأن الشرور التي مورست قبلك قد مارسها شرطةٌ وجنودٌ وجدوا أنفسهم في يومٍ ما يفعلون أشياء غير قانونية. كن على استعداد لأن تقول: لا.

النظم الاستبدادية عادةً ما تتضمن قوةً خاصةً من الشرطة لمكافحة الشغب، وظيفتها فض أية محاولة من قِبل المواطنين للاحتجاج والتظاهر، وأخرى سرية وظيفتها اغتيال المعارضين، أو أي شخص يتم اعتباره عدوّاً.

وبالتأكيد سنجد بأن تلك الفرق السرية كانت على علاقة وثيقة مع أعظم الفظاعات التي جرت خلال القرن العشرين، كمظاهر الإرهاب الكبير في الاتحاد السوفياتي في ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨، والمحارق التي أقامها النازيون الألمان لليهود في ١٩٤١ ـ ١٩٤٥.

ومع ذلك فإننا نقع في خطأ جسيم حين نتوهم أن المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية للسوفيات (NKVD) أو وحدات الأس أس النازية هي من قامت بتلك الأدوار دون دعم ومساندة. إنهم لم يكونوا ليتمكنوا من ممارسة أعمال القتل الرهيبة تلك وعلى ذلك المستوى الواسع لولا معاونة قوات الشرطة وأفراد الجيش العاديين.

ففي أثناء الإرهاب العظيم الذي وقع في الاتحاد السوفياتي، وثق أعضاء المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية عمليات تصفيةٍ لـ ٦٩١، ٦٨٢، والذين تم اعتبارهم جميعاً أعداء للدولة، غالبهم من الفلاحين أو أفراد من أقليات قومية. ولعله لم يكن هناك جهاز لإدارة العنف أتمّ مركزية أو أكثر تنظيماً من المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية خلال تلك السنوات.

وفي الواقع فإن عدداً قليلاً من الرجال هم من نفذوا عمليات الاغتيال بشكل مباشر، مما يعني أن أعضاء معينين من المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية كانوا يتحملون عبء آلاف الاغتيالات السياسية. لكن مع ذلك فمن المستحيل أنهم تمكنوا من فعل ذلك من غير معاونة من قِبل قوات الشرطة المحلية والقانونيين ومختلف الموظفين في طول البلاد وعرضها.

الإرهاب الكبير وقع في فترةٍ اعتبرت استثنائية وهو ما استدعى من الشرطة أن يستسلموا لإرادة المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية ومهامها الخاصة. لم يكن رجال الشرطة هم من نفذوا تلك الاغتيالات بشكل مباشر لكنهم وفروا غطاءً لا غنى عنه لتنفيذها.

وحين نستحضر محارق النازية لليهود، فإن ما ينقدح في نفوسنا هو صورة أوشفيتز وآلة القتل الميكانيكية غير المشخصنة. وهذه الصورة في الحقيقة تعبر عن ذكرى مريحة ومطمئنة للألمان عند استحضار تلك المحارق؛ إذ إنها تفسح المجال لادعاء بأن قلةً قليلة منهم فقط هم من كانوا يعلمون بالضبط ما الذي كان يدور خلف تلك الأبواب الموصدة.

في الواقع فإن عمليات الإبادة لم تبدأ من هناك في مرافق القتل المرعبة، وإنما ابتدأت بإطلاق الرصاص على الضحايا فوق الخنادق في أوروبا الشرقية. صحيح أن عدداً من قيادات وحدات القتل المتنقلة المسؤولة عن كثير من تلك الجرائم تمت محاكمتهم في نورمبرغ، ولاحقاً في محاكم ألمانيا الغربية، لكن هذه المحاكمات في الواقع لا تعدو أن تكون تحجيماً لطبيعة الجريمة التي وقعت. فلم يكن قادة الأس أس وحدهم من نفذوا هذه

العمليات، وإنما الآلاف من الرجال أيضاً ممن خدموا تحت ألويتهم كانوا شركاء في الجريمة.

وكانت هذه البداية فقط؛ إذ إن كل عمليات إطلاق نار واسعة مما وقع في تلك المجازر (أكثر من ٣٣ ألفاً من اليهود قتلوا خارج كييف، وأكثر من ٢٨ ألفاً خارج ريغا، وغيرهم وغيرهم) وقع بمشاركة قوات شرطة ألمانية عادية. وبشكل عام، فإن رجال الشرطة العاديين قد قتلوا من اليهود أكثر ممّا فعلت فرق وحدة القتل المتنقلة الألمانية، مع أن كثيراً منهم لم يكن مهيأً بطريقة خاصة للقيام بمثل هذه المهمة، لكنهم وجدوا أنفسهم في أوضاع غير مألوفة، وقد وجهت إليهم الأوامر، ولم يرغبوا في أن يظهروا بمظهر ضعف.

في حالات نادرة لم يتم معاقبة أفراد الشرطة الذين رفضوا تنفيذ تلك الأوامر، فيما قتل آخرون بعد إدانتهم بالقتل. لكن الكثير ممّن مارس القتل إنما كان يخشى أن يبدو مختلفاً ومتميزاً. وبطبيعة الحال فهناك عوامل أخرى كانت تعمل عملها في المشهد ولم يكن الأمر مقصوراً على تطلّب هذا التوافق والانسجام.

ولكن من غير هذا اللون من التوافق وعدم التمايز فإن أعظم الجرائم والفظاعات ستكون مستحيلة.

٨

كن متميزاً وعارضْ

يجب أن يفعل ذلك أحد. إنه لمن السهل أن يسير الإنسان مع التيار. قد ينتابك شعور بالغربة من قول شيءٍ أو فعل أمرٍ مختلف، ولكن من دون ذلك الشعور بعدم الراحة لن توجد حرية. تذكر روزا باركس(*). **في اللحظة التي تقيم فيها أنموذجاً صالحاً، فإن سحر الأمر الواقع يتبدد، وسيتبعك الآخرون.**

(*) هي ناشطة حقوقية أمريكية من أصول أفريقية، اشتهرت برفضها إخلاء مقعدها في القسم الملون بعد أن طلب منها السائق أن تفعل ذلك لصالح راكب أبيض، ولقبت بأم حركة التحرير، وسيدة الحقوق المدنية الأولى. (المترجم)

بعد الحرب العالمية الثانية، اخترع الأوروبيون والأمريكيون وآخرون أساطير عن مقاومةٍ شرعيةٍ لهتلر. لكن الواقع كان بخلاف ذلك، ففي ثلاثينيات ذلك القرن كان الموقف السائد هو التكيف مع هذا الواقع والإعجاب به.

وبحلول عام ١٩٤٠ وصل معظم الأوروبيين إلى قناعة بتعذر مناهضة القوة الألمانية النازية والتي بدا أنها لا تقهر. شخصيات أمريكية مؤثرة كشارلز ليندبيرغ عارضوا دخول حرب مع النازيين تحت شعار «أمريكا أولاً».

إنهم أولئك الذين كانوا يُعتَبَرُون استثنائيين، أو غريبي الأطوار، أو حتى مجانين بالنسبة إلى زمانهم، هم أولئك الذين لم يتغيروا حين تغير العالم من حولهم، وهم الذين نتذكرهم اليوم ونشعر حيالهم بالإعجاب والامتنان.

العديد من الدول الأوروبية قبل الحرب العالمية الثانية بمدة كانت قد تخلت عن الديمقراطية لصالح نوع من الأنظمة الشمولية اليمينية. فإيطاليا أضحت أول دولة تتحول إلى نظام فاشي سنة ١٩٢٢، ولتصبح بعد ذلك حليفاً عسكرياً لألمانيا. كما تم اجتذاب المجر ورومانيا وبلغاريا نحو ألمانيا بوعود التبادل التجاري ومزيد من الأراضي.

وفي آذار/مارس من سنة ١٩٣٨، لم تُبْدِ أي قوة من القوى

العظمى أي معارضة لألمانيا حين ضمت النمسا؛ بل إن تلك القوى ممثلة بفرنسا وإيطاليا وبريطانيا العظمى بقيادة نيفيل تشامبرلين تعاونت مع ألمانيا النازية في عملية تقسيم تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨.

وفي صيف ١٩٣٩ قام الاتحاد السوفياتي بالتحالف مع ألمانيا النازية، وانضم الجيش الأحمر إلى قوات الدفاع الألمانية *الفيرماخت* في غزو بولندا. وقد اختارت الحكومة البولندية القتال، مفعلةً بذلك عدداً من الاتفاقيات التي أدت إلى جرّ بريطانيا العظمى وفرنسا للحرب.

وأقدمت ألمانيا، المزودة بالغذاء والوقود من الاتحاد السوفياتي، على غزو النرويج وهولندا وبلجيكا بل وفرنسا في ربيع سنة ١٩٤٠، وتمكنت من احتلالها جميعاً وبسرعة. أما بريطانيا فقد تم إجلاء البقية الباقية من مشاة قواتها من القارة عند ميناء دانكيرك في نهاية شهر أيار/مايو وبدايات حزيران/يونيو من سنة ١٩٤٠.

وحين أصبح ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني في شهر أيار/مايو سنة ١٩٤٠، كانت بريطانيا العظمى لوحدها في المشهد. لم تكسب بريطانيا أي معركة ذات أهمية، ولم يكن لها أي حلفاء مهمين. لقد دخلوا الحرب نصرةً لبولندا، وهي قضية باتت بلا معنى الآن. لقد هيمنت ألمانيا النازية وحلفاؤها السوفيات على القارة بالكامل. فقد غزا الاتحاد السوفياتي فنلندا في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣٩، مبتدِئاً بقصف هلسنكي. وبعد تولي تشرشل منصبه مباشرة، احتل الاتحاد السوفياتي دول البلطيق الثلاث: استونيا، ولاتفيا، وليتوانيا.

لم تدخل الولايات المتحدة الحرب بعد. ولم يكن لأدولف هتلر أي أطماع تجاه بريطانيا أو إمبراطوريتها، وكان حتماً يتخيل عالماً مقسماً على أسس المصالح، وكان يتوقع من تشرشل أن يرضخ للأمر الواقع، خصوصاً بعد سقوط فرنسا.

لكن تشرشل لم يفعل؛ بل قال للفرنسيين: «مهما فعلتم، فسنظل نحارب للأبد وللأبد وللأبد»، وقال للبرلمان البريطاني في حزيران/ يونيو ١٩٤٠: «معركة بريطانيا على وشك البدء».

وبدأت قوات الجو الألمانية بدك المدن البريطانية. كان هتلر يظن بأن هذا سيضطر تشرشل لتوقيع هدنة، لكنه كان مخطئاً. وقد وصف تشرشل تلك الحملة الجوية لاحقاً بقوله: «كان وقتاً تساوى فيه الموت والحياة»، كما تحدث عن «روح بريطانيا المتفائلة ورباطة جأشها، والذي كان لي شرف التعبير عنها».

إن سياسيين آخرين كانوا سيجدون في الرأي العام البريطاني دعماً لقرار إنهاء الحرب، لكن تشرشل بدلاً من ذلك قاوم، وألهم، وانتصر.

فقد استطاعت القوات الجوية الملكية (إضافة إلى سربين بولنديين وعددٍ من الطيارين الأجانب) أن تصد القوات الجوية الألمانية. ومن غير السيطرة على الجو فحتى هتلر ما كان يتخيل إمكانية غزو برمائي لبريطانيا العظمى.

لقد أقدم تشرشل على فعل ما لم يفعله الآخرون؛ فبدلاً من التنازل من وقت مبكر، استطاع أن يضطر هتلر لتغيير خططه.

كانت الاستراتيجية الأساسية للألمان هي إزالة أي مقاومة من

جهة الغرب، ومن ثم غزو (وبالتالي خيانة) الاتحاد السوفياتي واستعمار مقاطعاته الغربية. ففي حزيران/يونيو ١٩٤١، وفيما كانت بريطانيا لا تزال ماضية في الحرب، هاجمت ألمانيا حليفها الاتحاد السوفياتي مما اضطر برلين أن تحارب على جبهتين، وأضحت موسكو ولندن فجأة حليفين غير متوقعين.

وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١، قصفت اليابان القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربر بهاواي، وهكذا دخلت الولايات المتحدة الحرب. وبهذا كوّنت موسكو وواشنطن ولندن حلفاً ضخماً لا يمكن مقاومته. ومعاً، وبمساعدة حلفاء كثر آخرين، استطاعت هذه القوى الثلاث العظمى الانتصار في الحرب العالمية الثانية.

ولكن لو أن تشرشل لم يُبق بريطانيا في الحرب في ١٩٤٠، فلن تكون هناك حرب أصلاً يُقاتَل فيها.

لقد قال تشرشل بأن التاريخ سيكون طيباً معه لأنه كان ينوي أن يكتب التاريخ بنفسه. لكنه في كتاباته، سواءً التاريخية أو في مذكراته الشخصية، قدم موقفه ذاك باعتباره أمراً بدهيّاً، ونسب الفضل فيه إلى الشعب البريطاني وحلفاء بريطانيا.

إن ما فعله تشرشل يبدو لنا اليوم أمراً طبيعيّاً وصحيحاً. ولكنه في ذلك الحين كان مضطرّاً لأن يتميز ويكون مختلفاً.

بالطبع فإن بريطانيا العظمى إنما شاركت في الحرب لأن القيادة البولندية هي من اختار خيار الحرب في أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٩. وقد تم التغلب على المقاومة البولندية المسلحة في تشرين

الأول/أكتوبر من ذات السنة. وقد بدا من الواضح تماماً سنة ١٩٤٠ أن وارسو عاصمة بولندا قد سقطت ووقعت تحت الاحتلال الألماني.

كان من المفترض أن تنهي تيريزا بريكيروا الثانوية العامة في تلك السنة، لكن أسرتها فقدت جميع ممتلكاتها لصالح الألمان، واضطروا للانتقال إلى وارسو ليعيشوا فيها بالإيجار.

كان أبوها معتقلاً، وأحد أعمامها مقتولاً، فيما اثنان من إخوتها أسرى في السجون الحربية الألمانية. وارسو نفسها كانت مدمرة بشكل كبير، وذلك من خلال حملة جوية ألمانية قتلت ٢٥ ألف إنسانٍ تقريباً.

تيريزا هذه، الشابة الصغيرة جداً، برزت من بين أصدقائها وأهلها وتميزت في ردة فعلها من مظاهر الرعب التي سيطرت على المشهد، وذلك في ظرف كان من الطبيعي أن لا يفكر المرء إلا في نفسه، لكنها كانت مهتمة بشؤون الآخرين.

ففي أواخر سنة ١٩٤٠، بدأت ألمانيا بتأسيس أحياء معزولة خاصة باليهود في أجزاء من بولندا، التي كانت واقعةً تحت نفوذهم. وفي تشرين الأول/أكتوبر من تلك السنة، كان مطلوباً من يهود وارسو والمناطق المحيطة أن ينتقلوا إلى منطقة معينة من المدينة.

أحد إخوة تيريزا كان على علاقة وديّة بفتاة يهودية وبعائلتها قبل الحرب، وقد لاحظت تيريزا بأن الناس بدؤوا ينسلون من حياة أصدقائهم اليهود بهدوء، فقررت بأن تدخل تلك الأحياء اليهودية

المعزولة في وارسو عشرات المرات في نهايات سنة ١٩٤٠ لتجلب لمن كانت تعرفهم من اليهود ومن لم تكن تعرف ما يحتاجونه من دواء وغذاء، كل ذلك من دون أن تخبر عائلتها، ومع ما يحف الأمر من مخاطرة عظيمة.

ومع نهاية السنة استطاعت إقناع صديقة أخيها بالهروب من ذلك الحي المعزول. وفي عام ١٩٤٢ ساعدت تيريزا والدَي الفتاة وأخاها على الفرار أيضاً. وقد نفذ الألمان في صيف ذلك العام وفي ذلك الحي تحديداً ما عرف بالإجراء العظيم، إذ رحلوا ٢٦٥,٠٤٠ من اليهود إلى معامل الموت في تريبلينكا ليتم تصفيتهم، كما قتلوا ١٠,٣٨٠ من اليهود في الحي نفسه. لقد أنقذت تيريزا بتصرفها ذاك تلك العائلة من موتٍ محقَّق.

أصبحت تيريزا بريكيروا في وقتٍ لاحق مؤرخةً للمحارق النازية، وكتبت عن ذلك الحي المعزول في وارسو وعن آخرين ساعدوا اليهود في ذلك الوقت. ولكنها فضلت ألّا تكتب عن نفسها، ولا عن الدور الذي قامت به. وحين سئلت مرةً في وقت متأخر جداً أن تتكلم عن حياتها، تحدثت وقالت بأن ما أقدمت عليه كان أمراً عاديّاً.

لكن ما قامت به من منظورنا يبدو أمراً استثنائيّاً؛ لقد برزت في ذاك السياق وعارضت.

٩

كن لطيفاً مع لغتنا

تجنّب استعمال التراكيب التي يستعملها الجميع. فكّر في طريقة تخصك في الكلام، حتى لو كنت تسعى للتعبير عن أمر تظن أن الجميع يتحدث عنه. ابذل جهداً لعزل نفسك عن الإنترنت. اقرأ الكتب.

فيكتور كليمبرر، عالم أدبٍ في أصول اليهودية، وظّف خبرته في فقه اللغة لتفكيك البروباغندا والدعاية النازية. لقد لاحظ كيف أن لغة هتلر كانت مشبعة برفض أي معارضةٍ مشروعةٍ، فحين يتحدث عن *الناس* فإنه دائماً يقصد بعضهم دون الآخرين (الرئيس الأمريكي بالمناسبة يستعمل الكلمة بذات الطريقة)، وحين يتحدث عن المواجهات فهي دوماً لون من *النضال* (والرئيس يستعمل *الفوز*)، وأي محاولة لتحرير الناس ليفهموا العالم بطريقة مختلفة فهي في الحقيقة *طعن* في القائد وتشهير به (أو كما يعبر الرئيس *قذف*).

لقد اعتاد السياسيون في هذه الأوقات أن يستعرضوا كليشاتهم على التلفاز، فيقوم الجميع بترادها، حتى أولئك الذي يرغبون في مخالفتهم. ولتحدي اللغة السياسية القائمة فإن الدعاوى التلفزيونية يتم تمريرها عبر الصور، لكنَّ تعاقب تلك الصور الواحدة تلو الأخرى قد يكون معوِّقاً من الوصول إلى حل أو قرار.

كل شيء يحدث بسرعة، لكن الواقع أن شيئاً لا يحدث. كل خبر يتم بثه عن طريق التلفاز يكون «عاجلاً» إلى اللحظة التي يتم استبداله بخبر عاجل آخر. وهكذا نصطدم بموجة من الأخبار في أعقاب موجة دون أن نرى المحيط.

إننا بحاجة إلى الكلمات والمفاهيم لفرز حجم الأحداث وأهميتها، خصوصاً حين نكون واقعين تحت تأثير الإبهار

البصري. إن مشاهدة الأخبار المتلفزة شبيه بحال رجل ينظر في صورةٍ لرجل ينظر هو الآخر في صورة. ونتوهم أن حال الغيبوبة الجماعية هذه تمثّل وضعية طبيعية. والواقع أننا انزلقنا فيها ببطء.

لقد حذرتنا الروايات الكلاسيكية التي تحدثت عن الأنظمة الشمولية من هذا قبل أكثر من نصف قرن من الزمان. ففي رواية **فهرنهايت** لراي برادبري، والتي نشرت سنة ١٩٥٣، يتحدث راي عن رجال المطافئ الذين يلاحقون الكتب ويحرقونها، في الوقت الذي يتابع فيه معظم المواطنين التلفزيون التفاعلي.

وفي رواية جورج أورويل **١٩٨٤**، والمنشورة سنة ١٩٤٩، يحدثنا عن حظر الكتب جميعاً، وأن التلفزيون يبث بالاتجاهين بما يسمح للحكومة بمراقبة المواطنين في جميع الأوقات، وكيف أن لغة الإعلام المرئي مقيَّدة إلى حدٍّ كبير، وذلك من أجل حرمان الجمهور من المفاهيم التي يحتاجون إليها للتفكير في واقعهم، أو تذكر ماضيهم، أو استشراف المستقبل أمامهم. بل إن أحد مشاريع النظام هو محاصرة اللغة نفسها بشكل أكبر، وذلك بحذف مزيد من الكلمات مع كل نسخة جديدة من المعاجم الرسمية.

ولعل التحديق في الشاشات أمر لا مفر منه، لكنّ هذا العالم ذا البعد الثنائي لن يفيدنا بكثير من المعنى إلا إذا تمكنا من استثمار ترسانة فكرية قمنا بتطوير كفاءتها في مكان آخر. حين نقتصر على تكرار ذات الألفاظ والجمل التي تظهر في وسائل الإعلام اليومية، فإننا نتقبل غياب نسق أوسع. وحتى نتمكن من الإحاطة بذلك النسق فنحن بحاجة إلى حزمة أوسع من المفاهيم، وحتى نُحصِّل تلك المفاهيم فنحن بحاجة إلى القراءة.

ولذا فأبعدْ تلك الشاشات من غرفتك، واجعل نفسك محاطاً بالكتب. الشخصيات في رواية أورويل أو برادبري لم تتمكّن من ذلك، لكن في وسعنا نحن أن نفعل ذلك.

ماذا تقرأ؟

أي روايات جيدة تحفزنا للتفكير في أوضاع ملتبسة، وتساعدنا على كشف نوايا الآخرين. خذ مثلاً **الإخوة كارامازوف** لفيودور دوستويفسكي، أو **كائن لا تحتمل خفته** لميلان كونديرا، فهما تبدوان مناسبتين للحظتنا الراهنة. رواية سنكلير لويس **لا يمكن أن يحدث هنا** لا تبدو عملاً فنياً راقياً، لكن رواية فيليب روث **مؤامرة ضد أمريكا** أجود وأحسن.

إحدى الروايات الشهيرة والمتداولة بين ملايين من الشباب الأمريكي، والتي تناولت ملف الطغيان والمقاومة، هي رواية ك. ج. رولانغ **هاري بوتر ومقدسات الموت**، إن لم تقرأها أنت أو أحد أصدقائك أو أطفالك من هذه الزاوية من قبل، فإن الأمر يستحق معاودة القراءة.

بعض الأعمال السياسية والتاريخية التي تثري القضايا المثارة هنا تتضمن كتباً مثل: «**السياسة واللغة الإنكليزية**» لجورج أورويل (١٩٤٦)[١]، **لغة الرايخ الثالث** لفيكتور كليمبيرير (١٩٤٧)[٢]، **أسس التوتاليتارية** لحنه آرنت (١٩٥١)[٣]، **الإنسان المتمرد** لألبير

(١) "Politics and the English Language" by George Orwell.

(٢) *The Language of the Third Reich* by Victor Klemperer.

(٣) *The Origins of Totalitarianism* by Hannah Arendt.

كامو (١٩٥١)[٤]، **العقل المعتقل** لتشيسواف ميووش (١٩٥٣)[٥]، «**قوة المستضعفين**» لفاتسلاف هافل (١٩٧٨)[٦]، «**كيف تكون محافظاً ـ ليبرالياً ـ اشتراكياً**» للشك كولاكفسكي (١٩٧٨)[٧]، **استخدامات المحنة** لتيموثي غارتون آش (١٩٨٩)[٨]، **عبء المسؤولية** لتوني جدت (١٩٩٨)[٩]، **رجال عاديون** لكريستوفر براوننغ (١٩٩٢)[١٠]، **لا شيء حقيقي وكل شيء ممكن** لبيتر بوميرانتسيف (٢٠١٤)[١١].

يمكن للمسيحيين أن يعودوا إلى مرجعهم الأساس، والذي يبدو كما كان دوماً مناسباً لزماننا. لقد وعظ عيسى الناس بقوله إنه لـ«أسهل أن يدخل الجمل في ثقب إبرة من أن يدخل الغني إلى ملكوت الله». يجب أن نكون متواضعين، إذ إن «كل من يَرفع نفسه يُوضع، ومن يَضع نفسه يُرفع». وبالطبع فيجب أن نكون مهتمين بتمييز الحق من الباطل: «وتعرفون الحق، والحق يحرركم».

---

(٤) *The Rebel* by Albert Camus.

(٥) *The Captive Mind* by Czesław Miłosz.

(٦) "The Power of the Powerless" by Václav Havel.

(٧) "How to Be a Conservative-Liberal-Socialist" by Leszek Kołakowski.

(٨) *The Uses of Adversity* by Timothy Garton Ash.

(٩) *The Burden of Responsibility* by Tony Judt.

(١٠) *Ordinary Men* by Christopher Browning.

(١١) *Nothing Is True and Everything Is Possible* by Peter Pomerantsev.

١٠

آمن بالحقيقة

إن هجران الحقائق هو هجران للحرية. إن لم يكن هنالك حقٌّ فلن يتمكن أحد من نقد السلطة، لأنه لا معايير يمكن التحاكم إليها لفعل ذلك. إن لم يكن هنالك حقٌّ، فإن كل شيء سيكون مجرد مشاهد استعراضية، وبإمكان المحَافِظ الأضخم شراء أكثر الأضواء إبهاراً.

إنك تستسلم للطغيان حين تلغي الفرق بين ما تريد سماعه وما يحدث فعلاً. وقد تشعر أن هذا التنازل عن الواقع أمر طبيعي، بل ومريح، ولكن النتيجة المترتبة عليه هي اضمحلالك كفرد له استقلاليته، وبالتالي انهيار أي منظومة سياسية تقوم على مبدأ الفردانية.

لقد تنبه مراقبو النظم الشمولية، مثل فيكتور كليمبرر، إلى أن الحقيقة تموت ضمن أربعة أنماط، وهي جميعاً مما مر بنا فعلياً عبر الصفحات الماضية.

أول هذه الأنماط هو الهجوم المباشر والمفتوح على الحقائق الواقعية، والذي يكون باختلاق الأكاذيب وعرضها كما لو كانت حقائق ثابتة. والرئيس يقوم بهذا الصنيع بمعدلٍ مرتفع وبوتيرة سريعة. ففي تتبع لتصريحاته أثناء حملته الانتخابية سنة ٢٠١٦ تبين أن ٧٨ بالمئة من دعاويه كانت زائفة. وهذه نسبة مرتفعة جداً إلى الحد الذي تبدو معه التصريحات الصحيحة وكأنها وقعت عفواً من غير قصد أثناء المضي على طريق فبركة كاملة.

إننا حين نحط من قدر العالم كما هو، فإننا نبتدئ بتأسيس عالم بديل متخيل.

النمط الثاني هو المسمى بالتعويذة الشامانية، وإليه يشير كليمبرر مبرزاً أسلوب الفاشية المعتمد على مبدأ «التكرار الدائم»،

والذي يهدف إلى جعل الوهم ممكناً، والجريمة مرغوبة. إن الاستعمال الممنهج للقبٍ من جنس «تِد الكذاب» "Lyin' Ted" أو «هيلاري المحتالة» "Crooked Hillary" حلّ محل صفات شخصية قد يكون من الأليق إلصاقها بالرئيس نفسه. ولكن من خلال هذا التكرار الفج عن طريق تويتر، استطاع رئيسنا تحويل بعض الأفراد إلى صور نمطية سرعان ما صار الناس يكررونها بصوت عالٍ.

لم يكن ترديد الحشود لهتافات من لون «ابنِ الجدار» "Build that wall" أو «احبسها» "Lock her up" في تجمعاته الانتخابية يعبر عن خطط فعلية للرئيس، لكن هوس العظمة المضمن في طيات تلك الهتافات أسس صلةً بينه وبين جمهوره.

النمط الثالث هو نمط التفكير السحري(*)، أو القبول التام بالمتناقضات.

لقد تضمنت حملة الرئيس الانتخابية وعوداً بتخفيض الضرائب للجميع، والقضاء على الدين العام، وزيادة الإنفاق في المجال الاجتماعي والدفاع. وهذه الوعود في الحقيقة متعارضة ذاتياً. إن الأمر شبيه بحال فلاح يقول بأنه سيأخذ بيضة من قن الدجاج، ويقوم بسلقها بالكامل وتقديمها لزوجته، وفي ذات الوقت يقوم بطبخها ليقدمها لأطفاله، ثم يعيدها مرة أخرى إلى مكانها في القن كما كانت من غير كسر، ليرى بعدها فرخاً يفقس منها. إن قبول أكاذيب متطرفة كهذه تتطلب مستوى صارخاً من التخلي عن العقل.

(*) هو توهم الإنسان بأن معتقداته وأمانيه ورغباته يمكنها التأثير في العالم الخارجي. (المترجم)

وإذا تأملنا في طبيعة الوصف الذي وثقه كليمبرر لمشهد فقدانه لأصدقائه في ألمانيا في ١٩٣٣ لصالح نموذج التفكير السحري، وجدنا رجعَ صدًى مرعب يتردد في واقعنا اليوم.

أحد طلابه القدامى ناشده أن: «تخلَّ عن نفسك لصالح مشاعرك، إنه من المتحتم عليك أن تركز دوماً على عظمة الفوهرر(*) بدلاً من التركيز على مشاعر عدم الراحة التي تحس بها حالياً». وبعد اثني عشر عاماً، وبعد جميع تلك الجرائم والفظاعات، وفي نهاية تلك الحرب التي بدا من الواضح تماماً أن ألمانيا قد خسرتها، قال أحد الجنود ممن فقد أحد أعضائه لكليمبرر: «إن هتلر لم يكذب أبداً حتى الآن، إنني واثق من هتلر».

النمط الأخير هو الإيمان الموضوع في غير محله؛ إنه ذلك النوع من الإيمان الذي ينطوي على دعاوى متناقضة ذاتياً، كتصريح الرئيس مثلاً: «إن بإمكاني وحدي أن أعالج هذه المشكلة»، أو قوله: «إنني صوتكم». حين يتنزل الإيمان بهذه الطريقة من السماء إلى الأرض فلا محل لحقائقنا الصغيرة التي تدور حول أفهامنا الفردية أو خبراتنا.

ما كان يثير الرعب في نفس كليمبرر هو كيف أن هذا التحول كان يبدو ثابتاً ومستقرّاً. فبمجرد أن تتحول الحقيقة من كونها مستندة إلى الواقع إلى كونها لوناً من التكهن، فإن الأدلة والحجج تكون غير ذات صلة بالموضوع. وقد كاشف أحد العمال كليمبيرير

(*) كلمة ألمانية تعني القائد. (المترجم)

مع نهاية الحرب بأنه «لا طائل من وراء الفهم، يجب أن يكون لديك إيمان، إنني مؤمن بالفوهرر».

الكاتب المسرحي الروماني العظيم أوجين يونسكو كان يشاهد أصدقاءه ينزلقون واحداً تلو الآخر ليقعوا فريسة اللغة الفاشية في ثلاثينيات القرن العشرين، وكانت تجربته الشخصية هذه الأساس الذي أقام عليه مسرحيته العبثية سنة ١٩٥٩ والمسماة «**وحيد القرن**»، والتي يتحول فيها أولئك الواقعون في شباك البروباغندا والدعاية المضللة إلى وحوش عملاقة بقرون.

وثَّقَ يونسكو شيئاً من تجربته الشخصية قائلاً:

كان أساتذة الجامعة، والطلاب، والمثقفون يتحولون واحداً تلو الآخر إلى نازيين، ليصبحوا جزءاً من الحرس الحديدي. ومن المؤكد أنهم لم يكونوا في البداية نازيين. كنا خمسة عشر شخصاً تقريباً نجتمع ونتناقش ساعين لإيجاد حجج مضادة لحججهم. لم يكن الأمر سهلاً... ومن وقت لآخر كان أحد الأصدقاء يقول: «إنني لا أتفق معهم بطبيعة الحال، ولكن بخصوص نقاط معينة فيجب علي الاعتراف بالموافقة، خذ مثلاً قضية اليهود...» إلخ. وكان هذا أحد أعراض المرض. وبعد ثلاثة أسابيع، فإن هذا الشخص قد تحول بالكامل ليصير نازياً. لقد وقع هذا الشخص فريسةً في المنظومة، وأضحى قابلاً لكل شيء، لقد تحول إلى وحيد قرن. ومع اقتراب النهاية كنا فقط ثلاثة أو أربعة ممن ما زال يقاوم.

كان هدف يونسكو أن يكشف لنا عن الجانب الغريب للبروباغندا، وكيف تبدو في المقابل عاديةً جداً لأولئك المستسلمين لها. لقد حاول من خلال تلك الصورة العبثية لوحيد القرن أن

يصدم الناس ليدركوا حجم الغرابة فيما يحدث في الواقع، وكيف أن وحيد القرن يتجول طليقاً في غابات السافانا لجهازنا العصبي.

إننا نجد أنفسنا اليوم مهتمين بشيء يقال له «ما بعد الحقيقة»(*)، ونميل لاعتقاد أنها تمثل ازدراءً للحقائق اليومية التي نعيشها، وأن بنيانها المشيد على حقائق بديلة أمرٌ جديد أو بعد حداثي. لكن ما فات جورج أورويل بهذا الصدد قليل، حيث رصد هذا الأمر قبل سبعة عقود في فكرته التي طرحها حول «التفكير المزدوج». فالحقيقة المابعدية تستعيد في فلسفتها الموقف الفاشي ذاته من الحقيقة. وهو السبب الذي لأجله لن يتفاجأ كليمبرر أو يونسكو لو اطلعوا على عالمنا وما نحن فيه.

لقد كان الفاشيون يحتقرون الحقائق الصغيرة للحياة اليومية، ويعشقون تلك الشعارات التي تتجاوب معها نفوسهم وكأنها دين جديد، لقد كانوا يفضلون الأساطير المبتكرة على التاريخ والصحافة. لقد استخدموا الإعلام الجديد، والذي كان يمثّله في وقتهم المذياع، ليقرعوا طبول دعايتهم المضللة، والتي هيجت المشاعر قبل أن يكون لديهم الوقت الكافي ليتثبتوا من الحقائق.

وكثير من الناس اليوم كما في ذلك الحين، خلطوا إيمانهم بقائد مليء بالمعايب بالحقائق الفعلية لهذا العالم الذي نتشارك نحن وهم فيه.

ما بعد الحقيقة هي ما قبل الفاشية.

(*) هذا الموقف المابعدي من الحقيقة هو نوع من الميل الذي يعرض لبعض الناس فتجده أكثر قرباً لتصديق المسائل بناء على مشاعره وعواطفه أكثر من الحقائق والحجج. (المترجم)

١١

قم بالتحري والبحث

اسعَ لفهم مختلفِ الأشياء بنفسك. اقضِ وقتاً أوسع مع المقالات الطويلة. قدِّم الدعم للصحافة الاستقصائية من خلال الاشتراك في النسخة الورقية. واعلم أن بعض المواد المنشورة على الإنترنت إنما وجدت من أجل الإضرار بك. تعرّفْ على المواقع التي تفحص الحملات الدعائية المضللة (والتي قد يأتي بعضها من وراء الحدود). تحمل مسؤولية ما تتناقله مع الآخرين.

«ما هي الحقيقة؟»

البعض يطرح هذا السؤال ببساطة لأنهم لا يريدون أن يفعلوا شيئاً.

إن النظرة التشاؤمية العامة تمدنا بشعور بالعصرية والمغايرة للسائد حتى ونحن ننزلق مع بقية أصحابنا المواطنين في مستنقع من اللامبالاة. إن قدرتك على فرز الحقائق وتمييزها هو ما يجعل منك فرداً له كيانه الخاص. وثقتنا الجماعية في المعارف العامة هو ما يحولنا إلى مجتمع. والفرد الذي يتحرى ويستقصي الحقائق هو أيضاً المواطن الذي يبني.

إن القائد الذي يكره من يتقصون الحقائق هو في الحقيقة طاغية مرتقب.

خلال حملته الانتخابية ادعى الرئيس الأمريكي عبر منصةٍ روسيةٍ لترويج البروباغندا بأن «وسائل الإعلام الأمريكية مضلِّلَة على نحو لا يطاق»، وقد منع كثيراً من الصحفيين من حضور تجمعاته الانتخابية، وكثيراً ما استثار الجمهور لكره الصحفيين وذلك بطريقة دورية ومنتظمة. وكما هي الحال مع قادة الأنظمة الاستبدادية، فقد توعد أيضاً بقمع حرية التعبير بقوانين ستمنع النقد. وقد استعمل الرئيس كلمة *أكاذيب* تماماً كما كان يستعملها هتلر للتعبير عن الحقائق التي لا تروقه، وأظهر الصحافة وكأنما هي حملة تستهدفه شخصياً.

لكن علاقة الرئيس بعالم الإنترنت كانت أكثر وديَّة، وقد كانت مصدر معلوماته المغلوطة والتي روجها بعد ذلك بين ملايين من البشر.

في عام ١٩٧١، وبعد تأملٍ في الأكاذيب التي أشاعتها الولايات المتحدة حول الحرب الفيتنامية، وصلت المنظرة السياسية حنه آرنت إلى قناعة بالقوة الذاتية للحقائق، والتي يمكنها التغلب على الأكاذيب في مجتمع حر؛ تقول: «في الظروف الطبيعية فإن الكاذب يهزمه الواقع، إذ لا بديل آخر عنه، ومهما كان حجم تلك الأكاذيب والتي يمكن لكذاب محترف أن يقدمها فلن تكون كبيرة إلى الحد الكافي لتغطية ضخامة الواقع، حتى لو استعان بالحواسيب من أجل ذلك». والواقع أن الجزء الخاص بالحواسيب لم يعد واقعياً الآن.

ففي الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٦ كان عالم الإنترنت ثنائي الأبعاد أكثر أهمية من هذا العالم ذي الأبعاد الثلاثية، موضع الاتصال الإنساني. أولئك الذين كانوا يطوفون على أبواب الناس باباً باباً من أجل تجميع أصوات المؤيدين واجهوا نظرات المواطنين الأمريكيين المتفاجئة، الذين اكتشفوا بأن عليهم أن يتحدثوا في شؤون السياسة مع بشرٍ من لحم ودم بدلاً من تعزيز وجهات نظرهم من خلال ما يتلقونه من حساباتهم على الفيسبوك. لقد ظهرت من داخل الإنترنت تجمعات جديدة، تجمعات لا ترى في وضح النهار، عشائر لها رؤاها الكونية المختلفة، والمرتهنة لعمليات التلاعب والخداع. (ونعم هناك مؤامرةٌ يمكنك أن تجدها على الإنترنت، وهي تلك المؤامرة التي تسعى لاستبقائك على الإنترنت باحثاً عن المؤامرات).

إننا بحاجة إلى الصحافة الورقية لتتمكن تلك الأخبار والحكايات من أن تتطور وتنمو على صفحات الورق وفي عقولنا. فعلى سبيل المثال، ما الذي يعنيه قول الرئيس: بأن مكان المرأة «في بيتها»، وأن الحمل يعد أمراً «مزعجاً»، وأن الأمهات لا يبذلن «١٠٠ بالمئة» من جهدهن في العمل، وأنه يجب معاقبة النساء اللوائي يقمن بالإجهاض، وأن النساء «سذج» و«خنازير» و«كلاب»، وأنه من المسموح الاعتداء عليهنّ جنسياً؟ ما الذي يعنيه أن ستاً من شركات الرئيس أعلنت إفلاسها، وأن مؤسسات الرئيس كانت تتلقى تمويلاً غامضاً من خلال كيانات موجودة في روسيا وكازخستان؟ وهي أمور يمكننا التثبت منها من خلال وسائل إعلامية مختلفة. لكننا متى تعرفنا على هذه الأمور من خلال الشاشة، فإننا ننجذب بغير شعور لمنطق الإثارة والاستعراض. فحين نقف على فضيحة فإن شهيتنا تنفتح للفضيحة التالية. وحين نتقبل دون وعي فكرة أننا نتابع تلفزيون الواقع بدلاً من النظر في شؤون الحياة الفعلية، فليس هنالك شيء يمكن أن يؤذي الرئيس سياسياً، لأن تلفزيون الواقع يجب أن يكون أكثر إثارة ودرامية مع كل حلقة. فلو أننا وجدنا مقطع فيديو للرئيس وهو يؤدي رقصةً قوقازية بينما فلاديمير بوتين يصفق بجواره، فإننا سنطالب في الغالب بلقطة أخرى تظهر الرئيس وهو يؤدي ذات الرقصة مرتدياً زي دب وممسكاً بعدد من الروبلات في فمه.مكتبة سُر مَن قرأ

إن الصحافة الورقية الجيدة تحملنا على التفكير في معنى ما يجري لنا ولبلدنا، والذي قد يبدو من دون ذلك مجرد شظايا معلومات مبعثرة. وإذا كان أي شخص قادراً على إعادة نشر أي مقالٍ بغاية اليسر، فإن البحث والكتابة في الواقع عمل شاق

يستدعي مالاً ووقتاً. وقبل أن تهزأ من «وسائل الإعلام السائدة»، تذكر أنها ما عادت تمثل الإعلام السائد. إن السخرية هي السائدة فعلياً، وهي النشاط الأسهل، بينما العمل الصحفي الحقيقي شاق ويبعث في النفس التوتر والانفعال. وجرب ذلك بنفسك، جرب أن تكتب مقالاً لائقاً، ينطوي على جهد حقيقي في هذا العالم الواقعي، كسفر ومقابلات وإقامة علاقات مع مختلف المصادر، والبحث في الوثائق المكتوبة، والتوثق من كل شيء، ثم كتابة المسودات ومراجعتها، كل ذلك تحت ضغط مواعيد ضيقة لا ترحم. إن وجدت أنك تحب عمل هذا فاحتفظ لنفسك بمدونة. لكن في الوقت الحاضر، امنح التقدير لأولئك الذين يفعلون ذلك من أجل لقمة العيش.

الصحفيون ليسوا كاملين بطبيعة الحال، شأنهم في هذا شأن أصحاب المهن الأخرى. لكن نتاج أولئك الملتزمين بأخلاق الصحافة مختلف نوعياً عن نتاج غير الملتزمين بها. إننا نشعر أنه من الطبيعي أن ندفع للسباك والميكانيكي ثمن جهدهم، لكننا في المقابل نطالب بأن تكون الأخبار مجانية. ولو أننا لم ندفع لأعمال السباكة أو إصلاح السيارات فلن نتوقع أنه بإمكاننا أن نشرب الماء أو نقود سياراتنا. فلماذا يتوجب علينا أن نُكَوِّن آراء سياسيةً تقوم في الحقيقة على استثمارات صفرية؟ إننا نحصل على عين ما دفعناه.

ونحن إن كنا صادقين في البحث عن الحقائق، فالإنترنت يقدم لنا قوة هائلة نحسد عليها في تملكها. وهو أمر لم يكن متوفراً لتلك الأنظمة التي استعرضناها هنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقد خسر لشك كولاكفسكي ـ الفيلسوف والمؤرخ البولندي العظيم والذي افتُتِحَ هذا الكتاب بكلمة له ـ كرسيه في جامعة وارسو لأنه أعلن موقفه الرافض للحكم الشيوعي، ولم يتمكن بعد ذلك من النشر.

الاقتباس الأول الذي تضمنه هذا الكتاب هو لحنه آرنت، وهو اقتباس مأخوذ من كتيب لها بعنوان «**نحن اللاجئون**»، وهو منجز خارق إذا استحضرنا أن كاتبته إحدى الناجيات من نظام نازي مجرم.

عقلية مذهلة كفيكتور كليمبرر، والذي هو محل إعجاب وتقدير اليوم، نتذكره لمجرد أنه احتفظ بعناد ليوميات كان يوثقها تحت حكم النازية. كان الأمر بالنسبة إليه كالقوت: «كانت يومياتي هي عصا التوازن التي أعتمد عليها، والتي من دونها كنت لأقع آلاف المرات».

فاكلاف هافل، أهم الشخصيات الفكرية المعارضة للشيوعية في سبعينيات القرن العشرين، أهدى أهم أبحاثه «**قوة المستضعفين**» لأحد الفلاسفة الذين ماتوا بُعيد عملية تحقيق معه قادتها الشرطة السرية للنظام التشيكوسلوفاكي الشيوعي. ولم يكن هناك طريقة لتناقل هذا البحث في تشيكوسلوفاكيا الشيوعية إلا وفق طرق غير قانونية، وبنسخ قليلة، يتداولها الناس فيما بينهم يداً بيد، على النحو الذي كان يعبر عنه الأوروبيون الشرقيون في ذلك الوقت متابعةً للمنشقين الروس «ساميزدات» «samizdat»(*). يكتب هافل: «إن

(*) هو نوع من الكتابة والنشر الذي مارسته المعارضة في روسيا وأوروبا الشرقية لسلطات الرقابة. (المترجم)

كانت الركيزة الأساسية للنظام تستمد حياتها من كذبة، فإنه ليس من المستغرب أن يكون المهدد الأساس لها هو العيش مع الصدق».

إننا نُعَدُّ جميعاً ناشرين في عصر الإنترنت، ولذا فإن كل واحد منا يتحمل بعض المسؤولية الخاصة في استبقاء الإحساس الجمعي بأهمية الصدق. إن كنا جادين في التفتيش عن الحقائق، فإن علينا القيام بثورة مصغرة على الطريقة التي يعمل عليها الإنترنت. إن كنت تتحقق من صوابية المعلومة لنفسك، فلا ترسل معلومات مغلوطة للآخرين. وإذا كنت تتابع صحفيين ممن تعتقد صدقهم في ضوء أدلةٍ تراها، فقم بتمرير ما توصلوا إليه إلى الآخرين. وإن أعدت التغريد لأعمال أناس تتابعهم ممن يلتزمون بالبروتوكولات الصحفية، فستكون أقل عرضة للتفاعل مع الحسابات الآلية والحسابات الموظفة.

إننا لا نرى تلك العقول التي ألحقنا الضرر بها حين نشرنا الأكاذيب، لكن ذلك لا يعني أننا لم ننشر الضرر بالفعل. فكر في قيادة السيارة؛ قد لا نرى السائق في السيارة الأخرى، لكننا نعلم أنه يتحتم علينا أن لا نصطدم بسيارته. إننا نعلم بأن الضرر سيكون مشتركاً، فتجدنا نحمي الطرف الآخر عشرات المرات يومياً حتى لو لم نره. وبالمثل، فمع أننا لا نرى الشخص الآخر جالساً أمام جهازه، فإننا نتحمل قدراً من المسؤولية فيما يمكن أن يقرأه.

إن كان بإمكاننا صيانة عقول من لا نراهم من ممارسة أي عنف حيالها، فسيتعلم الآخرون ذلك وسيفعلون الشيء. ولعله بعد ذلك يكفّ مشهد تدفق معلوماتنا في شبكات الإنترنت عن أن يبدو كحادث مرور دموي مروع.

١٢

حافظ على التواصل البصري والدردشة الخفيفة

إن هذا ليس لوناً من اللباقة فحسب، بل هو جزء من كونك مواطناً، وعضواً ذا مسؤولية في هذا المجتمع، وهو وسيلة لتحافظ على اتصالك بالمحيط من حولك. قم بهدم الأسوار الاجتماعية، وتعرف على من يستحق الثقة ممن لا يستحق. إنّك حين تنغمس في ثقافة الإدانة والشجب، ستحتاج إلى أن تتابع وتتعرف على الحالة النفسية لكامل المشهد لحياتك اليومية.

لقد ظهرت الأنظمة الجائرة في أزمنةٍ وأمكنةٍ مختلفة من أوروبا في القرن العشرين، ولكن مذكرات ضحايا تلك الأنظمة تشترك جميعاً في الكشف عن لحظة حساسة معينة. فسواء تعلق الأمر بذكريات إيطاليا الفاشية في عشرينيات القرن العشرين، أو ألمانيا النازية في ثلاثينيات ذلك القرن، أو الاتحاد السوفياتي زمن الإرهاب العظيم سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨، أو حملات التطهير التي وقعت زمن الشيوعية في أوروبا الشرقية في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، فإن الناس الذين كانوا يعيشون لحظات الرعب زمن القمع والاستبداد يتذكرون تماماً كيف عاملهم جيرانهم.

كان للابتسامة، والمصافحة، وعبارات الترحيب ـ وهي أمور تبدو عادية جداً في الظروف الطبيعية ـ قيمة كبرى في تلك الأوضاع. وحين بدأ الأصدقاء، والزملاء، والمعارف في صرف أنظارهم أو الإعراض عنهم لتجنب التواصل معهم فإن الخوف بدأ ينمو وينمو.

قد لا تكون على تمام اليقين عمن ستدور عليه الدائرة اليوم أو غداً، ويكون عرضة للخطر في الولايات المتحدة، ولكنك متى بذلت شيئاً من التعاطف والدعم للجميع فثق تماماً بأن هناك أناساً معينين سيشعرون بمزيد طمأنينة وراحة.

إن أولئك الذين يتمكنون من الهرب والنجاة في أكثر الأوقات خطورة يكونون بشكل عام قادرين على التعرف على من يستحق الثقة فعلاً.

إن امتلاك صداقات قديمة تمثل الملاذ الأخير في عالم السياسة، وبناء صداقات جديدة هي الخطوة الأولى نحو التغيير.

١٣

مارس السياسة بجسدك

إن السلطة تطمع في أن يسترخي بدنك في كرسيك، وأن تتبدد عواطفك على الشاشات. اخرج من بيتك، وضع نفسك في أماكن غير مألوفة ومع أناس غير مألوفين. كون صداقات جديدة وتحرك في مسيرات معهم.

حتى تنجح المقاومة فلا بد من تجاوز حجابين:

الأول، يجب أن تخترق فكرة التغيير شرائح مجتمعية مختلفة ممن لا يتفقون بالضرورة في كل شيء.

والثاني، يجب أن يجد الناس أنفسهم في أماكن مختلفة عوضاً عن بيوتهم، ومع مجموعات ممن لم يكونوا أصدقاءهم.

فمن الممكن أن تُستثمَر شبكات التواصل الاجتماعي في تنظيم الاحتجاجات، ولكن لا شيء من ذلك سيكون ذا قيمة حقيقية ما لم يكن مآله في الشوارع. ومتى أحس الطغاة بأن مثل هذه الأنشطة ليس لها عواقب في هذا العالم الفعلي ذي الأبعاد الثلاثة فلن يتغير شيء.

المثال الوحيد لمقاومة ناجحة وقفت في وجه الشيوعية كان من خلال تضامن الحركة العمالية في بولندا في ١٩٨٠ ـ ١٩٨١، والتي كانت عبارة عن ائتلاف عمال وفنيين، وعناصر من الكنيسة الرومية الكاثوليكية، إضافة إلى مجموعات علمانية. لقد تعلم قادة هذا الائتلاف دروساً قاسية تحت ظل الشيوعية.

فقد استطاع النظام في عام ١٩٦٨ أن يحشد العمال ضد الطلاب في احتجاجاتهم. وحين تم سحق إضراب العمال في غدانسك على شاطئ البلطيق، كان الدور على العمال ليذوقوا مرارة العزلة.

لكن مثقفين ومختصين قاموا في سنة ١٩٧٦ بتكوين مجموعةٍ لمساندة العمال الذين تعرضوا لسوء معاملة من الحكومة. كانوا مجموعةً من اليمين واليسار، مؤمنين وملاحدة، استطاعوا جميعاً أن يخلقوا حالة ثقة بين العمال؛ أناس لولا هذا الغرض ما التقوا أصلاً.

وحين شرع العمال البولنديون على شاطئ البلطيق في إضرابهم مرة أخرى سنة ١٩٨٠، كان قد انضم إليهم محامون، ومفكرون، وآخرون ساهموا معهم في بناء قضيتهم. وكنتيجةٍ لتظافر تلك الجهود تم تأسيس نقابةٍ عماليةٍ حرة إضافة إلى ضمانات حكومية لمراعاة حقوق الإنسان. وخلال الستة عشر شهراً التي كان الائتلاف فيها قانونياً، انضم عشرة مليون إنسان لها، وتشكلت صداقات لا تحصى في ظل الإضرابات والمسيرات والمظاهرات.

ثم إن النظام الشيوعي البولندي تدخل ليقضي على ذلك الحراك بفرض الأحكام العرفية سنة ١٩٨١. ولكن بعد ثماني سنوات في ١٩٨٩، حين احتاج النظام للتفاوض، اضطر الشيوعيون للجوء إلى الائتلاف. حينها أصرت النقابة العمالية على ضرورة إجراء انتخابات حرة، وهو ما جرى بالفعل ليكون الفوز من نصيبهم فيها. لقد كانت هذه بداية نهاية الشيوعية في بولندا وأوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي.

إن خيار الحضور في الفضاء العام يعتمد على قدرة المرء على المحافظة على فضائه الخاص. إننا أحرار فقط بالقدر الذي نتمكن فيه من رسم الخط الفاصل بين المساحة التي نسمح فيها للآخرين برؤيتنا والمساحة التي لا نسمح لهم فيها بذلك.

١٤

أسّسْ حياةً خاصةً

الحكام الأكثر خبثاً ولؤماً سيستخدمون ما يعرفونه عنك كي يضغطوا عليك ويدفعوك يمنةً ويسرة. قم بتنظيف جهازك من البرمجيات الضارة بشكل دوري. تذكر أن الإيميلات كالكتابة في صفحة السماء. فكّر في استعمال خيارات بديلة من الإنترنت أو قرر ببساطة أن تخفف من استعماله. اجعل تواصلك مع الآخرين حضورياً. وللسبب نفسه عالج أية مشكلات قانونية قد تكون عالقاً بها. إن الطواغيت يفتشون عن الخُطّاف الذي يمكنهم أن يعلقوك من خلاله، فاسعَ أن تكون خلواً من أي خُطّاف.

حين تحدثت المفكرة العظيمة في مجال السياسة حنه آرنت عن *الحكم الشمولي* فإنها لم تكن تقصد الحديث عن دولة كاملة القوة، ولكنها أرادت أن تتناول مظهر إلغاء الفرق بين الحياة العامة والخاصة. إننا أحرار فقط ما دمنا قادرين على التحكم بما يعرفه الناس عنا، وفي أي ظروف وملابسات يمكنهم التعرف علينا.

وفي الواقع فقد خطونا بضع خطوات نحو الشمولية من غير أن نكون مدركين لذلك بتاتاً، وذلك خلال السباق الرئاسي لسنة ٢٠١٦، حين قبلنا بانتهاك خصوصيتنا الإلكترونية وكأنه أمر طبيعي.

وسواء وقع ذلك من قبل المخابرات الأمريكية أو الروسية أو أي مؤسسة أخرى، فإن سرقة أو مناقشة أو إعادة نشر أي محادثات شخصية يدمّر الأرضية الأساسية التي تقوم عليها حقوقنا.

إن لم يكن في قدرتنا التحكم بما يقرؤه الآخرون عنا ومتى يمكنهم ذلك، فلن يكون في مقدورنا أن نتصرف وفق خياراتنا في الوقت الحاضر أو نخطط للمستقبل. وإن أي شخص يتمتع بالقدرة على أن يخترق خصوصيتك، فبمقدوره إذلالك وإهانتك وإرباك علاقاتك متى ما أراد. وليس ثَمَّةَ أحدٌ (ربما باستثناء الطغاة) يمتلك حياة خاصة يمكنها أن تصمد حين تُعرَّى تحت هجمات موجهة.

إن توقيت تسريب الرسائل الإلكترونية في سباق ٢٠١٦ الرئاسي يمثل صورةً صارخةً من التضليل الإعلامي(*)، فالكلمات التي كُتِبَتْ في أوضاعٍ معينةٍ لن تفيد معناها المقصود إلا في ذلك السياق الذي كتبت فيه، وبالتالي فعملية زحزحتها عن لحظتها الزمنية وإعادة إسقاطها على ظرف مختلف هو في الحقيقة نوع من التزوير.

الأكثر إزعاجاً هو في موقف وسائل الإعلام، والتي أقبلت بقضها وقضيضها لتغطية قنابل البريد الإلكتروني تلك، وملاحقتها باعتبارها أخباراً. لقد خان أولئك الإعلاميون مهمتهم. عدد قليل من الصحفيين فقط بذلوا جهداً لتوضيح لماذا قال أولئك الناس ما قالوه أو كتبوه في الوقت الذي فعلوا فيه ذلك.

وفي الوقت الذي كان الإعلام يبث فيه ذلك الانتهاك الذي مورس بحق الخصوصية تحت لافتة نشر الأخبار، فقد سمح لنفسه أن ينشغل عن الأحداث الفعلية الواقعة في ذلك اليوم. وبدلاً من أن تكون التغطية حول انتهاك حق من الحقوق الأساسية، فإن وسائل إعلامنا ارتضت لنفسها أن تنغمس في تلك الشهوة المتأصلة الطامعة في التعرف على خصوصيات الآخرين وشؤونهم. وكما كانت آرنت تعتقد، فإن شهوتنا لمعرفة الأسرار هي شأن سياسي حتى النخاع.

إن الأنظمة الشمولية حين تسعى لإزالة الفوارق بين الشأن

(*) الظاهر أن المقصود هو ما وقع في أثناء ذلك السباق الرئاسي من اختراق البريد الإلكتروني لبعض المسؤولين في اللجنة الوطنية الديمقراطية و«هيلاري كلينتون»، ونشر عدد من المراسلات الخاصة عبر عدة منصات منها ويكيليكس وغيرها. (المترجم)

الخاص والشأن العام فإنها لا تمارس هذا لمجرد إزهاق حرياتنا الفردية، بل لصرف المجتمع كله أيضاً عن أن يمارس السياسة على نحو طبيعي، ليندفع الجميع باحثين في نظريات المؤامرة. فبدلاً من معرفة الحقائق وتقديم التحليلات والتفسيرات المناسبة لها، فإنه يتم إغراؤنا بفكرة وجود حقائق مخفية، ونظريات لمؤامرات تعقد في الظلام يمكنها أن تفسر لنا كل شيء.

وكما تعلمنا من حادثة فضائح البريد الإلكتروني، فإن هذه التقنية تعمل عملها حتى لو كانت المعلومات المكشوفة غير مثيرة للاهتمام. فمجرد كشف ما كان خاصاً ومستوراً يصبح هو القصة نفسها.

(إنه لأمر صادم أن تكون قنوات الأخبار أكثر سوءاً في هذا الباب من قنوات الأزياء والرياضة. فالمراسلون في مجال الأزياء يعلمون أن العارضات يقمن بخلع ملابسهن في غرف تبديل الملابس، والمراسلون الرياضيون يعلمون أن الرياضيين يستحمون في غرف التبديل، لكنهم جميعاً لا يسمحون مطلقاً للمسائل الخاصة أن تحل محل القصة التي يتوجب عليهم تغطيتها).

إننا حين نبدي اهتماماً حقيقياً بأمور مشكوك في أهميتها في أوقات اختارها الطغاة والأشباح لنا، فإننا نسهم في تدمير نظامنا السياسي.

وبالتأكيد فإننا قد نشعر بأننا لا نمارس شيئاً زائداً عما يمارسه الآخرون. وهذا صحيح، وهو عين ما كانت تصفه آرنت بأنه لون من التقويض للمجتمع وتحويله إلى مجموعة «رعاع». وبالإمكان معالجة هذه المشكلة فردياً بتحصين حواسيبنا، كما يمكننا معالجتها جماعياً بدعم الجمعيات المعنية بحقوق الإنسان مثلاً.

١٥

ساهمْ بدعم قضايا نبيلة

كن فاعلاً في المنظمات المعبرة عن قيمك في الحياة، سواء كانت سياسية أو غير سياسية. اختر جمعيةً خيريةً أو اثنتين ورتّبْ جدولاً للتبرع لها آلياً، وبذلك ستكون قد اخترت بحريةٍ دعم قضايا من شأنها مساندة المجتمع المدني، ومساعدة الآخرين لينشروا الخير.

إنه لمما يبعث السرور والبهجة في النفس، مهما كان مسار الأحداث، معرفتك بأنك تساعد الآخرين على فعل الخير.

فالكثير منا بمقدوره دعم جزء من تلك الشبكة الواسعة من الجمعيات الخيرية، والتي أسماها أحد الرؤساء السابقين: «ألف نقطة من الضوء». إن نقاط الضوء هذه يمكن مشاهدتها في أحسن صورة كنجوم في ظلمة الغسق على صفحة سماءٍ معتمة.

حين يفكر الأمريكيون في الحرية فإن ما ينقدح في نفوسهم عادةً نوع من المنافسة المعقودة بين فرد وحيد وحكومة قوية. ثم نميل بعدها إلى القول بضرورة تمكين الفرد في مقابل تحجيم الحكومة.

وهذا جيد جداً.

ولكن أحد عناصر الحرية يكمن في اختيار الرفاق والشركاء، وأحد خطوط الدفاع عن الحرية يكمن في مدى نشاط المجموعات في المحافظة على أعضائها ومساندتهم. ولهذا السبب فيجب علينا الانخراط في أنشطة تدخل في نطاق اهتماماتنا، مما يترتب عليها مصالح تعود بالفائدة علينا وعلى أصدقائنا وعوائلنا. ولا يلزم أن تكون هذه الأنشطة سياسية محضة، وقد ضرب المفكر التشيكي المنشق فاتسلاف هافل المثل بتخمير بيرة جيدة.

وبقدر ما نعتز بهذه الأنشطة، ونتواصل مع آخرين ممن يعتز بها أيضاً، فإننا نُسهم في خلق مجتمع مدني.

إن مشاركة الآخرين في مشروع يعلمنا بأنه يمكننا الثقة بأشخاصٍ خارج محيطنا الاجتماعي الضيق المتمثل في أصدقائنا وأهلينا، كما يساعدنا على التعرف على أصحاب المعرفة والاختصاص، ممن يمكننا أن نتعلم منهم.

إن القدرة على الثقة والتعلم تجعل الحياة تبدو أقلَّ فوضويةً وغموضاً، كما أنها تجعل السياسات الديمقراطية أكثر إمكانية وجاذبية أيضاً.

لقد أدرك معارضو الشيوعية في أوروبا الشرقية، والذين كانوا يمرون بأوضاع أكثر سوءاً منَّا، بأن تلك الأنشطة المدنية التي تتبدى للوهلة الأولى بأنها لا تمثل أنشطة سياسية تتضمن في طياتها لوناً من التعبير وتشكل حصانةً لحرية التعبير.

وقد كانوا محقين.

لقد كان جميع أعداء الحرية الرئيسيين في القرن العشرين معادين للمنظمات غير الحكومية والجمعيات الخيرية وما يشبهها.

فقد اشترط الشيوعيون على أمثال تلك المجموعات أن تكون مسجلةً رسمياً ثم حوّلوها لتصبح مؤسسات للسيطرة والتحكم. واستطاع الفاشيون أن يوجدوا نظاماً أسموه نظام «النقابوية»، والذي يكون فيه نشاط كل فرد موضوعاً في مكانه اللائق، وخاضعاً للحزب الحاكم.

والأنظمة الاستبدادية اليوم (في الهند وتركيا وروسيا) تعاني هي الأخرى من حساسية مفرطة من فكرة الجمعيات الحرّة، والهيئات غير الحكومة.

١٦

تعلّمْ من نظرائك في الدول الأخرى

ابقِ على صداقاتك من وراء الحدود، أو كوّنْ لنفسك صداقات جديدة في دول أخرى. فالمشكلات الحالية التي نواجهها هنا في الولايات المتحدة هي جزء من اتجاه عام أكثر سعة. ولن تتمكن أي دولة بمفردها من الوصول إلى حل. تأكّدْ من أنك وأفراد عائلتك تمتلكون جوازات سفر.

في السنة التي سبقت انتخاب الرئيس، كان الصحفيون الأمريكيون مخطئين بشأن حملته الانتخابية. فبينما كان يتغلب على الصعوبات، ويتجاوز الحواجز واحداً بعد الآخر، ويحقق الانتصار تلو الانتصار، كان المراقبون يؤكدون لنا بأن صعوده سيتوقف في المرحلة المقبلة على يد هذه المؤسسة الأمريكية العريقة أو تلك.

لكن كان هنالك مجموعة أخرى من المراقبين في ذلك الوقت ـ من الأوروبيين الشرقيين أو ممن درس أوروبا الشرقية ـ وكانت لديهم وجهة نظر مختلفة. فبالنسبة إليهم كانت الحملة الانتخابية للرئيس مألوفة على نحوٍ ما، ونتيجتها النهائية لم تُشكِّل لهم أي مفاجئة.

لقد كانت تعليقات الصحفيين الأوكرانيين والروس الذين عايشوا أجواء وسط غرب الولايات المتحدة أكثر واقعيةً من مراكز استطلاع الرأي الأمريكية التي خلقت وظائف في مجال فهم سياسة بلدهم.

وقد كان بطء استجابة الأمريكيين لتلك الهجمات الإلكترونية الواضحة والأخبار الوهمية الفاضحة يمثل بالنسبة إلى الأوكرانيين مشهداً هزلياً كوميدياً؛ إذ إنهم مروا بتجربة مقاربة.

فحين استهدفت البروباغندا الروسية أوكرانيا سنة ٢٠١٣،

تصدى لها الشباب الصحفي الأوكراني على نحو مباشر وحاسم، وبخفة دم أحياناً لفضح عمليات التضليل.

وقد أعادت روسيا تطبيق عدد من تلك الأساليب في استهدافها لأوكرانيا ـ والتي استعملتها لاحقاً ضد الولايات المتحدة ـ وذلك أثناء غزوها لأوكرانيا.

فعندما نشرت وسائل الإعلام الروسية زوراً خبر إقدام القوات الأوكرانية على صلب فتًى صغير سنة ٢٠١٤، كان رد الأوكرانيين سريعاً وناجحاً (على الأقل داخل أوكرانيا نفسها).

وبالمقابل حين أشاعت وسائل الإعلام تلك ـ سنة ٢٠١٦ ـ قصةً تتناول هيلاري كلينتون وأنها تعاني من مرض لأنها ذكرت في أحد إيميلاتها مقالةً حول «إجهاد اتخاذ القرار» (وهو ليس مرضاً بالمناسبة)، فقد تولى الأمريكيون بأنفسهم نشر القصة وإشاعتها.

لقد انتصر الأوكرانيون فيما هُزِمَ الأمريكيون، وذلك أن روسيا مع فشلها في الحصول على نظام حاكم في جارتها على وفق مزاجها، تمكنت من أن ترى مرشحها المفضل ينتصر في الولايات المتحدة.

إن هذه الحقيقة يجب أن تجعلنا نتوقف قليلاً.

فالتاريخ الذي كان يتبدى، وكأنما هو يتجه من الغرب إلى الشرق، بات على ما يبدو يتحرك من الشرق إلى الغرب. فجميع ما يحدث هنا يبدو أنه قد حدث هناك أولاً.

حقيقةَ أن غالب الأمريكيين لا يمتلكون جوازات سفر يمثل مشكلة حقيقية للديمقراطية الأمريكية.

يقول الأمريكيون أحياناً بأنهم لا يحتاجون إلى وثائق سفر لأنهم يفضلون الموت في سبيل الدفاع عن الحرية هنا في أمريكا.

وهذه كلمات جميلة، لكنها تُغفِل نقطة هامة.

فالمعركة ذيولها طويلة.

وحتى لو تطلب الأمر التضحية، فإنها تطلب أولاً اهتماماً متواصلاً بالعالم من حولنا، حتى نتعرف بدقة على الشيء الذي نقاومه، وكيف يمكننا تأدية ذلك بشكل أفضل.

ولذا فإن امتلاك جواز سفر لا يمثل علامة استسلام.

بل على العكس، فهو يمثل مصدراً للحرية، بخلق إمكانية الحصول على خبرات جديدة. إنه يسمح لنا برؤية كيف يتفاعل الآخرون ـ والذين قد يكونون أكثر حكمة منا ـ مع مشكلات مشابهة لمشكلاتنا.

وبما أن كثيراً مما جرى لنا في العام الماضي شبيه بما جرى في مختلف مناطق العالم، أو على صفحات التاريخ القريب منا، فعلينا أن نراقب ونسمع.

١٧

اصغِ بسمعك للكلمات الخطيرة

كن متنبهاً لاستعمالات كلمة التطرف والإرهاب. وكن متيقظاً في وجه الفكرة المهلكة: الطوارئ والاستثناء. وكن غاضباً من التوظيفات الخدّاعة لقاموس المفردات الوطنية.

لقد شرح المنظر القانوني كارل شميت ـ أكثر النازيين ذكاءً ـ بلغة واضحة جوهر الحكم الفاشي؛ حيث أوضح أن الطريق لتدمير القواعد جميعاً هو بالتركيز على فكرة الاستثناء.

فالقائد النازي يلتف على خصومه من خلال تأسيس قناعة عامة بأن اللحظة الراهنة تمثل حالة *استثنائية*، ثم يقوم بتحويل تلك الحالة الاستثنائية لتكون حالة طوارئ مستقرة.

لترى المواطنين بعدها يدفعون حرياتهم الحقيقية ثمناً لأمانٍ زائف.

وحين يقوم السياسيون اليوم باستدعاء *الإرهاب* فإنهم بطبيعة الحال يتحدثون عن خطر حقيقي. ولكنهم حين يطمعون في تعويدنا على التنازل عن الحرية باسم الأمن فيجب أن نرفع من مستوى تأهبنا.

فلا ضرورة للمقايضة بينهما، بل بالإمكان أحياناً أن نحافظ عليهما جميعاً، وقد نضطر في بعض الأحيان لكسب أحدهما بخسارة الآخر.

إن أولئك الذين يؤكدون لك بأنه لا سبيل إلى المحافظة على أمنك إلا بدفع الثمن من جيب حريتك عادة ما يطمعون بأن تُحرَمَ منهما جميعاً.

ومن الممكن جدّاً أن تضحي بحريتك دون أن تنال أماناً أكثر.

إن الشعور الذي يولد من رحم الاستسلام للسلطة قد يبدو مريحاً ومطمئناً أكثر، لكنه ليس عين الأمان الحقيقي. وبالمثل فإن الحصول على شيء من الحرية قد يكون مخيفاً بعض الشيء، لكن هذا الشعور الأولي بعدم الراحة ليس خطراً.

ومن السهل أن نتصور أوضاعاً نضحي فيها بالحرية والأمن جميعاً كالدخول في علاقة مؤذية بنا، أو التصويت لفاشي.

وعلى نحو مشابه، فليس من الصعب أن نتصور خيارات تسهم في مزيد من الحرية والأمن معاً، كالخروج من تلك العلاقة المؤذية، أو الهجرة من دولة فاشية.

إنه لمن واجب الحكومة أن تسعى في زيادة كلٍّ من الحرية والأمن دون فرض المقايضة بينهما.

إن لفظة *التطرف* تبدو سيئة فعلاً، والحكومات غالباً ما تحاول زيادة جرعة سوئها باستعمالها مع لفظة الإرهاب في جملة واحدة.

لكن الكلمة في الواقع ليس لها كبير معنى.

فلا وجود هناك لمذهب أو عقيدة تدعى *التطرف*.

وحين يتحدث الطغاة عن *المتطرفين*، فإنهم في الواقع إنما يتكلمون عن أناس لا ينتمون إلى التيار السائد، والذي يتم تحديده بالمناسبة طبقاً لأهواء أولئك الطغاة في تلك اللحظة الزمنية.

هكذا كانت أحوال كافة المنشقين في القرن العشرين، سواء

كانوا مقاومين للفاشية أو الشيوعية، فقد تم إلصاق تهمة *التطرف* بهم جميعاً. والأنظمة الاستبدادية الحديثة كالنظام في روسيا تستخدم القوانين المتعلقة بالتطرف لمعاقبة أولئك الذين ينتقدون سياساتها.

وبهذه الطريقة يتم تفريغ *التطرف* من كل دلالة له، ليعني كل شيء تقريباً عدا الشيء الذي يعنيه فعلاً، وفي الواقع فإن الطغيان هو التطرف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

١٨

كن هادئاً حين تحل المصيبة

إن الطغيان المعاصر هو في لبه إدارةٌ للخوف. حين تجيء الهجمات الإرهابية، تذكر بأن الأنظمة الاستبدادية ستسعى لاستثمارها بما يبسط نفوذها أكثر فأكثر. تلك الكارثة المباغتة، والتي تستدعي إنهاء نظام الضوابط والتوازنات، وحلّ أحزاب المعارضة، وتعليق حرية التعبير، والحق في محاكمة عادلة، إلى آخر هذه القائمة، هي أقدم حيلة في الصحيفة الهتلرية. فلا تقع في فخها.

كان حريق الرايخستاغ هو اللحظة التي قفزت فيها حكومة هتلر ـ والتي جاءت للسلطة وفق الأعراف الديمقراطية ـ لتكون هي النظام النازي الدائم والخطير.

إنه النموذج الأول لفن إدارة الخوف.

ففي يوم السابع والعشرين من شهر شباط/ فبراير سنة ١٩٣٣، وفي حدود الساعة التاسعة ليلاً، شب حريق في مبنى البرلمان الألماني ـ الرايخستاغ ـ.

من أشعل النار في تلك الليلة في برلين؟

لا نعلم، وفي الواقع فإنه لا يهم كثيراً. المهم هو أن هذا العمل الإرهابي الكبير أطلق العمل بقانون الطوارئ.

فبينما كان هتلر ينظر في ألسنة النار المتصاعدة بسرور، أخذ يقول: «هذا الحريق هو البداية فقط». وسواءً كان النازيون هم من أشعلوا ذلك الحريق أم لا، فإن هتلر أدرك الفرصة السياسية للحدث: «لن يكون هناك أي رحمة الآن، أي شخص يقف في طريقنا سيتم سحقه». في اليوم التالي خرج مرسوم عُلِّقَتْ بموجبه الحقوق الأساسية كافة لجميع المواطنين الألمان، بما سمح للشرطة لاعتقال من شاءت تحت ذريعة «الاعتقالات التحرزية».

وبناء على دعوى هتلر بأن ذلك الحريق كان من عمل أعداء

ألمانيا، فقد تمكن الحزب النازي من أن يحقق فوزاً حاسماً في الانتخابات البرلمانية في الخامس من آذار/ مارس.

بدأت الشرطة والبرلمانيون النازيون عمليات الاعتقال لأعضاء الأحزاب اليسارية ووضعهم في معسكرات اعتقال بدائية.

وفي الثالث والعشرين من شهر آذار/ مارس، مرر البرلمان قراراً بتفعيل «قانون التمكين»، والذي سمح لهتلر أن يحكم بشكل أحادي. واستمرت ألمانيا تحت أحكام الطوارئ لاثنتي عشرة سنة تالية، انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية.

لقد استثمر هتلر هذا الفعل الإرهابي وهو حدث محدود الأهمية، ليقيم نظاماً إرهابياً مجرماً قتل ملايين البشر وغيّر وجه العالم.

إن المستبدين اليوم هم أيضاً مديرو خوف، وإن كان من اختلاف بينهم وبين من مضى فهو أنهم أكثر إبداعاً في عملهم.

تأمل في النظام الروسي الحالي، والذي يحظى بإعجاب كبير من قِبل الرئيس. ففلاديمير بوتين لم يصل إلى رأس السلطة في ضوء حادث شبيه بشكل لافت لحريق الرايخستاغ فحسب، بل استغل سلسلة من الحوادث الإرهابية ـ حقيقية ومشتبه فيها ومزيفة ـ لإزالة كافة العوائق من طريق بسط يده على كامل السلطة في روسيا، وليبتدئ الهجوم بعدها على الجارات الديمقراطية.

فحين عُيّن بوتين رئيساً للوزراء من قِبل الفاشل بوريس يلتسين في آب/ أغسطس سنة ١٩٩٩، كان غير معروف، وصاحب شعبية شبه معدومة.

لكن في الأشهر التالية وقعت سلسلة من التفجيرات في عدد من المباني في عدد من المدن الرئيسية، والظاهر أنها وقعت بأيدي الشرطة الروسية السرية، فقد اعتقل أولئك الضباط بأيدي زملائهم ومعهم أدلة إدانتهم، بل إن أحد أعضاء البرلمان الروسي أعلن عن تفجير قبل أيام قليلة من وقوعه فعلاً.

ومع كل هذا فقد أعلن بوتين حرباً انتقامية ضد السكان الروس المسلمين في الشيشان، متوعداً بأنه سيتعقب أولئك الجناة المفترضين ويقوم بذبحهم جميعاً في غرف الخلاء.

واحتشدت الأمة الروسية خلفه، وتصاعدت شعبيته بشكل هائل، وفي آذار/مارس التالي فاز في الانتخابات الرئاسية.

وبعد أن قتلت قوات الأمن الروسية عدداً من المدنيين أثناء مواجهاتهم لهجوم إرهابي حقيقي في مسرح بموسكو سنة ٢٠٠٢، استغل بوتين الظرف ليسيطر على القنوات التلفزيونية الخاصة.

وبعد عملية محاصرة مدرسة بسلان من قبل إرهابيين في ٢٠٠٤ (في ملابسات غريبة تكشف عن إرادة لإحداث قدر من التحريض والاستفزاز)، قام بوتين بإزاحة محافظي الأقاليم المنتخبين.

وبهذا تمكن بوتين من الصعود للسلطة، والقضاء على مؤسستين كبيرتين ـ القنوات الخاصة والمحافظين المنتخبين ـ وذلك من خلال إدارة الرعب الحقيقي والمشتبه فيه والمزيف.

وبعد عودة بوتين للرئاسة سنة ٢٠١٢، أدخلت روسيا مسألة إدارة الخوف في سياستها الخاصة.

فحين اجتاحت روسيا أوكرانيا في ٢٠١٤ قامت بتحويل وحدات من جيشها إلى قوات إرهابية، وذلك بإزالة الشارات من الزي العسكري وإنكار أي مسؤولية للفظاعات التي قاموا بها.

وفي الحملة التي قادتها في منطقة دونباس في الجنوب الشرقي لأوكرانيا، قامت بنشر قوات شيشانية غير نظامية، وأرسلت وحدات من جيشها النظامي والمتمركزة في المناطق المسلمة للمشاركة في الاجتياح.

وقد حاولت روسيا (لكنها فشلت) في اختراق الانتخابات الرئاسية الأوكرانية لسنة ٢٠١٤.

وفي شهر نيسان/أبريل ٢٠١٥، قام بعض قراصنة الإنترنت الروس بالسيطرة على إرسال محطة التلفاز الفرنسية، وتظاهروا بأنهم من داعش، وقاموا ببث مواد مصممة لإثارة الرعب في نفوس الفرنسيين. لقد انتحل الروس شخصية «خلافةٍ سيبرانية» لأجل أن يضاعفوا خوف الفرنسيين من الإرهاب أكثر فأكثر.

لقد كان الهدف ـ بحسب ما نعتقد ـ هو دفع الناخبين صوب الحزب اليميني المتطرف «الجبهة الوطنية»، وهو حزب يتلقى دعماً مالياً روسياً.

وبعد مقتل ١٣٠ شخصاً وإصابة ٣٦٨ بجراح في هجمات باريس الإرهابية في تشرين الثاني/نوفمبر سنة ٢٠١٥، أعلن مؤسس أحد المراكز البحثية المقربة من الكرملين عن ابتهاجه بأن الإرهاب سيدفع أوروبا نحو الفاشية وروسيا.

وسواء كان الإرهاب الإسلامي الواقع في أوروبا الغربية حقيقياً أو وهمياً فإنه كان يصب في صالح الروس.

وفي بواكير عام ٢٠١٦، قامت روسيا بصناعة لحظات من الرعب المصطنع في ألمانيا.

ففي الوقت الذي كانوا يقصفون فيه المدنيين بسوريا، مما دفع بآلاف اللاجئين المسلمين ليتدفقوا صوب أوروبا، قاموا باستغلال دراما أسرية للإيعاز للألمان بأن المسلمين مجموعة من مغتصبي الأطفال.

والهدف مرة أخرى كما يبدو هو زعزعة نظامٍ ديمقراطيٍّ والسعي في تصعيد أحزاب يمينية متطرفة.

ففي أيلول/سبتمبر الماضي أعلنت الحكومة الألمانية عن استقبال نصف مليون لاجئ من الحرب الدائرة في سوريا، لتبدأ روسيا حملة قصف استهدفت المدنيين. وبعد أن وفرت اللاجئين، قامت روسيا بتوفير السردية.

حيث احتشد الإعلام الروسي في كانون الثاني/يناير من عام ٢٠١٦ لنشر قصة مفادها أن فتاة من أصول روسية بألمانيا فُقدت لمدة يسيرة، وتعرضت لسلسلة اغتصابات من قِبل مهاجرين مسلمين.

وبحيوية مشبوهة قامت المنظمات اليمينية بألمانيا لترتيب مظاهرات ضد الحكومة.

وحين أبلغت الشرطة المحلية السكان بأنه لم تقع حادثة اغتصاب أصلاً، اتهمتها وسائل الإعلام الروسية بمحاولة التستر على الجريمة. وحتى الدبلوماسيون الروس انضموا إلى المشهد.

عندما يتحدث الرئيس الأمريكي ومستشاره في مجال الأمن

القومي عن محاربة الإرهاب جنباً إلى جنب روسيا، فإن ما يعرضونه على الشعب الأمريكي هو لون من إدارة الخوف: استغلال لحوادث إرهابية حقيقية وملتبسة وزائفة من أجل إسقاط الديمقراطية.

الخلاصة الروسية لأول اتصال هاتفي جرى بين الرئيس وفلاديمير بوتين ذات دلالة خاصة، «فقد تبادل الرجلان وجهات النظر حول ضرورة التعاون ضد العدو المشترك الأول: الإرهاب والتطرف الدولي».

كان الدرس الذي تعلمه الطغاة من حريق الرايخستاغ بأن لحظة واحدة من الصدمة كفيلة بانتزاع خضوع أبدي.

أما الدرس الذي يجب علينا أن نتعلمه نحن فهو أن الخوف الطبيعي والحزن يجب ألّا يُمكّن أحداً من تدمير مؤسساتنا.

إن الشجاعة لا تعني عدم الخوف أو عدم الحزن.

لكنها تعني القدرة على التعرف على إدارة الرعب ومقاومته فوراً، من اللحظة التي يقع فيها الهجوم، وتحديداً في تلك اللحظات التي يكون فيها الأمر أصعب ما يكون للقيام بذلك.

لقد أحسن جيمس ماديسون في توضيح نقطة أن الطغيان يبرز «على ظهر بعض الحالات الطارئة المواتية». وبعد حريق الرايخستاغ كتبت حنه آرنت «بأنه لم يكن في مقدوري تبني وجهة النظر القائلة بأن الواحد يمكنه أن يكون ببساطة مجرد متفرج».

١٩

كن مناضلاً وطنياً

كن قدوةً صالحةً لما تمثله أمريكا للأجيال القادمة، فإنهم سيحتاجون لذلك.

ما هي الوطنية؟

دعونا نبدأ بتحرير ما ليس وطنياً.

ليس من الوطنية التنصل من الخدمة العسكرية، والسخرية من أبطال الحروب ومن عائلاتهم.

ليس من الوطنية أن يمارس المرء التميزَ ضد الأفراد العاملين في القوات المسلحة في شركاته، أو إقامة الحملات لأجل إبعاد قدامى المحاربين عن عقاراته.

ليس من الوطنية المقارنة بين سعي شخصٍ للبحث عن شريك جنسي في مدينة نيويورك، وبين خدمةِ عسكري في فيتنام والذي تهرب ذات الشخص منها.

ليس من الوطنية التهرب من دفع الضرائب، خصوصاً حين تلتزم العوائل الأمريكية العاملة بالدفع.

ليس من الوطنية أن يطلب شخص من أولئك العاملين من دافعي الضرائب، بأن يمولوا حملته الانتخابية في السباق الرئاسي، ثم يقوم بصرف تلك التبرعات على شركاته الخاصة.

ليس من الوطنية أن يبدي المرء إعجابه بالدكتاتوريين.

ليس من الوطنية أن يوثق المرء علاقاته مع معمر القذافي، أو يصف بشار الأسد أو فلاديمير بوتين بأنهم قادة متفوقون.

ليس من الوطنية دعوة روسيا للتدخل في الانتخابات الرئاسية الأمريكية.

ليس من الوطنية الاستشهاد بالبروباغندا الروسية في التجمعات الانتخابية.

ليس من الوطنية مشاركة مستشارٍ مع النخبة الحاكمة الروسية.

ليس من الوطنية أن يلتمس الشخص نصيحة تتعلق بالسياسة الخارجية ممن يمتلك حصصاً في شركات طاقة روسية.

ليس من الوطنية قراءة خطاب في السياسة الخارجية كتبه شخص يتقاضى مرتبات من شركة طاقة روسية.

ليس من الوطنية تعيين شخص في منصب مستشار الأمن القومي وقد أخذ أموالاً من جهاز بروباغندا روسي.

ليس من الوطنية تعيين صاحب شركات نفط ممن لديه مصالح مالية مع الروس، ويشغل منصب مدير شركة طاقة روسية أمريكية، وحصل على «وسام الصداقة الروسي» من بوتين، ليكون وزيراً للخارجية.

ليست القصة أن روسيا وأمريكا يجب أن يكونوا أعداء، وإنما القصد التأكيد على أن الوطنية الحق تكمن في أن يخدم المرء بلده.

إن الرئيس في الحقيقة قومي يميني، وهو غير مطابق لكون المرء وطنياً.

إن القومي المتعصب هو من يشجعنا على أن نصير إلى أسوأ ما يمكن، ثم يخبرنا بأننا كنا الأفضل.

القومي اليميني كما كتب أورويل: «على الرغم من أنه مهموم دوماً بالقوة، والانتصار، والهزيمة، والانتقام...»، فإنه يميل إلى أن يكون «غير عابئ بما يجري في العالم الحقيقي». فالقومي المتعصب صاحب نزعة نسبية، إذ إن الحقيقة الوحيدة تكمن في مشاعر الكراهية والاستياء التي نجدها حين نفكر في الآخرين، وهي بحسب تعبير دانيلو كيش: «لا تملك أي قيم كونية، سواءً كانت جمالية أو أخلاقية».

وعلى النقيض فالوطني يريد من وطنه أن يرتقي إلى مثله العليا، والذي يعني مطالبتنا بأن نكون على أفضل صورة ممكنة.

والوطني يجب أن يكون مهموماً بالعالم الحقيقي، إذ هو المكان الوحيد الذي يمكن فيه لبلده أن يكون موضعاً للحب والاستقرار.

الوطني لديه قيم عالمية، ومعايير يحاكم إليها وطنه، متمنياً له الخير والتوفيق، ومتمنياً أن يستمر في الرقي والازدهار.

لقد فشلت الديمقراطية في عشرينيات وثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي في أوروبا، وهي لم تفشل في أجزاءٍ عدة من أوروبا فقط، بل هي تنحسر وتتراجع في أجزاء كثيرة من العالم اليوم.

إنه ذلك الجزء من التاريخ والخبرة الذي يكشف لنا ذلك النطاق الأسود لمسارات مستقبلنا الممكنة.

القومي اليميني سيقول: «من المستحيل أن يقع هذا هنا»، وهو ما يمثل الخطوة الأولى نحو الكارثة.

لكن الوطني سيقول من الممكن أن يحدث هذا هنا، ولكننا سنوقفه.

٢٠

كن شجاعاً بكل ما تستطيع

إن لم يكن من بيننا من هو مستعد للموت في سبيل الحرية، فسنموت جميعاً تحت ظلال الطغيان.

خاتمة

التاريخ والحرية

في مسرحية «**هاملت**» لشكسبير، كان البطل رجلاً فاضلاً مستقيماً، ومصدوماً بحق من الصعود المفاجئ لحاكم شرير. مسكوناً بالرؤى، ومقهوراً بالكوابيس، ووحيداً ومعزولاً، شعر أن من الضروري إعادة بناء إحساسه بالزمن.

يقول هاملت: «إننا في زمن مضطرب معوج، ويا له من قضاء جائر، أن أكون ولدت لكي أقوّم اعوجاجه»(*). ونحن بالتأكيد في زمن مضطرب ومعوج.

لقد نسينا التاريخ لسبب معين، وإن لم نكن حذرين فسنهمله لسبب آخر أيضاً.

سيتحتم علينا أولاً أن نصلح إحساسنا بالزمن إن كنا نرغب في تجديد التزامنا بقيمة الحرية.

لقد استطاع الأمريكيون حتى وقت قريب أن يقنعوا أنفسهم بأنه ليس في المستقبل إلا المزيد مما مضى. وعلى ما يبدو فإن

(*) اعتمدت في ترجمة هذا النص من المسرحية على طبعة دار المعارف. (المترجم)

تلك الصدمات التي تبدو بعيدة للفاشية والنازية والشيوعية تنسحب من مشهدنا لتبدو غير ذات صلة.

لقد سمحنا لأنفسنا بقبول نظرية *الحتمية السياسية*، ذلك الإحساس القائل بأن التاريخ ليس في مقدوره إلا المضي باتجاه واحد نحو الديمقراطية الليبرالية.

فبعد انتهاء الشيوعية من أوروبا الشرقية في ١٩٨٩ ـ ١٩٩١، تشربنا خرافة «نهاية التاريخ». وبصنيعنا هذا خَفّضنا من قوة دفاعاتنا، وحَجّمنا من قوة مخيالنا، وجعلنا لذات الأنظمة التي قلنا لأنفسنا باستحالة رجوعها سبيلاً علينا.

وبالتأكيد فإن الحتمية السياسية تبدو للوهلة الأولى نوعاً من التاريخ.

إن السياسيين الحتميين لا ينكرون أن هناك ماضياً وحاضراً ومستقبلاً؛ بل إنهم يفسحون المجال لروايات متنوعة لذاك الماضي البعيد. لكنهم يصورون الحاضر ببساطة كخطوة نحو مستقبل نعرفه سلفاً، مستقبل تتوسع فيه العولمة، وتتعمق فيه العقلانية، ويزداد الازدهار ويتنامى. وهذا ما يسمى بالغائية، وهي سردية معينة للزمن تقود لهدف معين، ويكون في الغالب هدفاً مرغوباً فيه.

الشيوعية تعرض غائيتها أيضاً، وتَعِدُ بيوتوبيا اشتراكية حتمية.

وعندما تهشمت هذه السردية في ربع القرن الماضي، انتزعنا نتيجة خاطئة؛ فبدلاً من رد فكرة الغائيات جملةً وتفصيلاً، توهمنا أن سرديتنا هي السردية الصحيحة.

إن فكرة الحتمية السياسية هي غيبوبة فكرية يتعمد أصحابها الدخول فيها.

وعلى طول الصراع بين الشيوعية والرأسمالية، وبقاء ذكرى الفاشية والنازية حيّةً، فقد اضطر الأمريكيون لصرف بعض الانتباه

للتاريخ، والمحافظة على حزمة من المفاهيم، والتي سمحت لهم بتخيل مسارات مستقبلية متعددة.

لكننا حين قبلنا بالحتمية السياسية، افترضنا بأن التاريخ ما عاد ذا صلة بحياتنا.

فإذا كان كل شيء في الماضي محكوماً بنزعات معلومة، فلا حاجة بنا لدراسة التفاصيل.

إن قبول فكرة الحتمية أسهم في جعل منطقنا السياسي في القرن الواحد والعشرين متكلفاً ومتقعراً. لقد خنق جدالاتنا السياسية، وتسبب في توليد أنظمة حزبية تدافع بكلياتها عن الأوضاع القائمة، بينما يقف الآخرون على موقف الضد تماماً.

لقد تعلمنا أن نقول بأنه لا يوجد أي بديل للأوضاع القائمة، وهي حساسية أسماها المنظر السياسي الليتواني ليونيداس دونسكيس «الشر السائل». فمتى ما قبلت الحتمية كأمر مُسَلّم، فسيكون النقد بالتأكيد أمراً صعباً وخطيراً.

وما يتمظهر في الواقع باعتباره تحليلاً دقيقاً له فإنه في الغالب يفترض بأن الوضع الراهن غير قابل للتغيير، وبالتالي فهو يعززه بطريقة غير مباشرة.

فالبعض تحدث بنقدٍ عن *النيوليبرالية*، وأن فكرة السوق الحرة قامت بطريقةٍ ما بدفع الآخرين إلى الخارج. وهذا قد يكون صحيحاً فعلاً، لكن الاستعمال الفعلي لهذه الكلمة عادةً ما يكون في سياق تملّق لهيمنة واقع ثابت ومستقر.

وبعض النقاد تكلم عن الحاجة إلى شيء من *الاضطراب*، مستعيرين مصطلحاً من مجال تحليل المبتكرات التقنية. ولكنهم حين يوظفون هذا المصطلح في المجال السياسي فإن سياق التوظيف يكشف مرة أخرى عن إيحاءات بعدم قابلية الواقع

للتغيير، وأن حالة الفوضى التي تحفزنا سيتم استيعابها وابتلاعها من خلال أنظمة ضبط ذاتية.

إن الشخص الذي يركض عارياً في ملعب كرة القدم يسبب قدراً من الاضطراب حتماً، لكنه لا يغير من قواعد اللعبة شيئاً.

إن كامل نظرية الاضطراب هي مجرد مراهقة فكرية، إذ هي تفترض أنه، وبعد أن يفرغ المراهقون من خلق فوضى، سيأتي الكبار لتنظيف المكان. ولكن الواقع أنه لا وجود لأولئك الكبار.

نحن فقط من نتحمّل مسؤولية هذه الفوضى.

الطريقة الأخرى المنافرة للتاريخ في النظر إلى الماضي هي نظرية *الخلود السياسي*.

فعلى نحو مشابه لنظرية الحتمية السياسية فإن نظرية الخلود السياسي تقوم بتزييف التاريخ، ولكن على نحو مختلف.

إنها مهمومة بالماضي ـ ولكن بطريقة خاصة ـ ينكفئ فيها المرء على ذاته، خلواً من أي اهتمام جادٍّ بالحقائق، ويكون في تلهف دائم للحظات تاريخية ماضية لم تقع فعلياً، في عهود كانت في الحقيقة كارثية.

والمتبنون لهذا المزاج السياسي يستجلبون صورةً ضبابيةً للماضي، كفناء واسع تقبع فيه نُصبٌ تذكارية يصعب قراءتها لضحايا قومية، جميعهم بعيدون عن الحاضر على نحو متساوٍ، وجميعهم قابلون للتلاعب والتوجيه بحسب الرغبة على نحو متساوٍ أيضاً.

وكل إشارة إلى الماضي تتضمن الكشف عن هجوم لعدو خارجي يستهدف نقاء الأمة.

إن جميع القوميين الشعبويين هم سياسيون يتبنون أنموذج الخلود السياسي.

ونقطتهم المرجعية المفضلة هي ذلك العصر الذي مُسِحَت فيه الجمهوريات الديمقراطية، وكان منافسوها من النازيين والسوفيات في صعود لا يقهر في ثلاثينيات القرن العشرين.

ولو فتشت في مخيال أولئك الذين روّجوا لبريكست ـ خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي ـ لوجدتهم يتخيلون دولة قومية بريطانية، مع أنها في الواقع لم توجد أبداً.

نعم، لقد كانت هناك إمبراطورية بريطانية، وبعدها وجدت بريطانيا كعضو في الاتحاد الأوروبي؛ لكن خطوة الانفصال عن الاتحاد الأوروبي في حقيقتها ليست خطوة للوراء، تستقر فيها القدم على أرضية راسخة صلبة، وإنما هي في الحقيقة قفزة نحو المجهول.

وحين قال القضاء بأن صوت البرلمانيين لا بد منه لتمرير بريكست، وصفتهم صحافة التابلويد البريطانية، وعلى نحو مخيف، بأنهم «أعداء الشعب». وهو مصطلح ستاليني أُطلِقَ في المحاكمات الصورية بموسكو في ثلاثينيات القرن الماضي.

الجبهة الوطنية الفرنسية أيضاً حفزت الناخبين لرفض أوروبا باسم وهم متخيل لدولة قومية فرنسية قبل الحرب. لكن فرنسا كبريطانيا لم تكن أبداً إلا إمبراطورية أو ضمن المشروع الأوروبي.

وهكذا نجد قادة روسيا، وبولندا، والمجر على حد سواء يبدون إيماءات مشابهة نحو صورة مشرقة لثلاثينيات القرن العشرين.

لقد استعمل الرئيس الأمريكي في حملته الانتخابية سنة ٢٠١٦ شعار «أمريكا أولاً»، وهو ذات الاسم الذي أُطلِق على لجنةٍ سعت لمنع الولايات المتحدة من مواجهة ألمانيا النازية.

ومن نظر في تصريحات مستشار الرئيس الاستراتيجي يجده يعد بسياسات ستكون مثيرة «بقدر إثارة ثلاثينيات القرن الماضي». ولك أن تتساءل متى كانت «المرة الأخرى» في شعار الرئيس «لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى» "Make America great again"؟، إليك هذا التلميح: إنها نفس «المرة الأخرى» التي نجدها في «لن يحدث مرةً أخرى» "Never again".

بل إن الرئيس نفسه وصف تغييراً شاملاً للنظام يماثل أسلوب ثلاثينيات ذلك القرن كحل لمشكلات الحاضر: «أتعلمون ما الذي يمكن أن يحلها؟ حين ينهار الاقتصاد، ويذهب البلد كله للجحيم، ويحل الدمار بكل شيء». الذي نحتاج إليه بحسب تفكيره هو «أعمال شغب تعيدنا إلى الوقت الذي كنا فيه عظماء».

إن نظرية الخلود السياسي تغوينا بماضٍ أسطوري يمنعنا من التفكير في مستقبل ممكن.

إن الاعتياد على ممارسة دور الضحية يضعف تحفزنا لتصحيح ذواتنا؛ وذلك أن الأمة يتم تعريفها من خلال فضائلها الموروثة عِوضاً عن مستقبلها المحتمل، وتتحول السياسة إلى جدلٍ بين الخير والشر، بدلاً من الجدل حول حلولٍ ممكنةٍ لمشكلات حقيقية.

ولأن الأزمة دائمة، فإن الشعور بأن الحالة طارئة حاضرة على الدوام، مما يجعل التخطيط للمستقبل يبدو مستحيلاً، بل قد يعد لوناً من الخيانة.

فكيف لنا أن نفكر في الإصلاح والأعداء مرابطون دوماً على أبوابنا؟!

وإذا كانت الحتمية السياسية شيئاً شبيهاً بالغيبوبة، فإن فكرة الخلود السياسي تشابه التنويم المغناطيسي: حين نحدق في دوامة

تلتف من الأساطير الدورية، ونستمر في ذلك حتى نقع في غفوة ثم نغيب عن الوعي، لنقوم بعدها بشيءٍ صادمٍ، بناءً على أوامر شخص ما.

إن الخطر الذي يواجهنا الآن هو في الانتقال من فكرة الحتمية السياسية والوقوع في شَرَك الخلود السياسي، من جمهورية ديمقراطية ساذجة ومعيبة نوعاً ما إلى حكم نخبة فاشية ومستهترة ومشوشة.

إن فكرة الحتمية السياسية ضعيفة وهشة على نحو رهيب أمام نوع الصدمة التي تعرضت لها قريباً. وحين يحطم شيء ما الأسطورة، ويكون الزمن مضطرباً ومشوشاً، فإننا نتهافت للبحث عن طريقة أخرى يمكننا من خلالها تنظيم ما نمر به. والطريق الذي لا يكلفنا الكثير من المقاومة هو ذات الطريق الذي يوصل مباشرة من الحتمية إلى الخلود.

إن آمنت مرةً بأن كل شيء سيؤول في النهاية إلى خير، فمن السهل إقناعك بأن لا شيء ينتهي إلى خير.

وإن لم تتحرك مرة لفعل شيء لظنك بأن التقدم مسألة حتمية، فبإمكانك أن تستمر في فعل لا شيء بذريعة أن الزمن يتحرك في دورات متكررة.

إن هذين الموقفين: الحتمية والخلود، هما موقفان مضادان للتاريخ.

والشيء الوحيد الذي يقف بينهما هو التاريخ نفسه.

فالتاريخ يسمح لنا بملاحظة الأنماط وإصدار الأحكام، إنه يرسم لنا مخططاً للهياكل الداخلية والتي تمكننا من تلمس الحرية، إنه يكشف اللحظات التي تختلف كل واحدة منها عن الأخرى دون أن تتميز إحداها بفرادة كاملة. ولفهم لحظة معينة فإنه يتعين علينا

ملاحظة إمكانية أن يكون المرء مشاركاً في صناعة لحظة أخرى.

إن التاريخ يسمح لنا بتحمل المسؤولية، ليس مسؤولية كل شيء، ولكن مسؤولية شيء.

لقد كان الشاعر البولندي تشيسواف ميووش يعتقد أن هذه الفكرة عن المسؤولية تعمل ضد الوحدة واللامبالاة.

إن التاريخ يعطينا نافذة نطل من خلالها على أولئك الذين فعلوا وعانوا أكثر مما فعلنا وعانينا.

إننا حين تقبلنا فكرة الحتمية السياسية ربينا جيلاً من دون تاريخ.

كيف سيتفاعل هؤلاء الشباب الأمريكي الآن مع وعود الحتمية التي بات من الواضح تماماً أنها قد أُجهضت؟ لعلهم سينزلقون منها نحو فكرة الخلود.

ويجب علينا أن نؤمّل أن بمقدورهم بدلاً من ذلك أن يصبحوا جيلاً تاريخياً، يرفض الوقوع في شِراك الحتمية والخلود، والذي نصبته الأجيال السابقة لهم.

شيء واحد مؤكّد: ما لم يبدأ الشباب بصناعة التاريخ فإن سياسات الحتمية والخلود ستدمرهم.

وحتى يصنعوا التاريخ فإن عليهم أن يدركوا بعضه.

إن هذه ليست النهاية، ولكنها البداية.

«إننا في زمن مضطرب معوج، ويا له من قضاء جائر، أن أكون ولدت لكي أقوّم اعوجاجه»، هكذا قال هاملت.

لكنه ختم كلامه بقوله: «كلا، تعالا، ولنمضِ من هنا معاً».

مكتبة
t.me/soramnqraa

في أواخر القرن التاسع عشر تولّد عن التوسع في التجارة العالمية توقعات وآمال بالتقدم، تعاماً كتلك التوقعات التي عمّت في نهايات القرن العشرين. ثم إنه في بواكير القرن العشرين، كما هي الحال في أوائل القرن الحادي والعشرين، اصطدمت هذه الطموحات والآمال برؤى سياسية جماهيرية جديدة يدّعي فيها رئيسٌ ما أو حزبٌ معين أنه من يمثل إرادة الشعب. وهكذا انهارت الديمقراطيات الأوروبية لتتحول إلى أنظمة شمولية وفاشية يمينية في عشرينيات القرن الماضي وثلاثينياته. وقام الاتحاد السوفياتي الشيوعي، الذي تأسس عام 1922، بتوسيع نموذجه داخل أوروبا في أربعينيات القرن العشرين.

يكشف لنا تاريخ القرن العشرين لأوروبا أن المجتمعات ليست آمنة من التفكك، وأن الديمقراطيات يمكن لها أن تسقط، وأن الأخلاق قد تنهار وتتهاوى، وأن رجالاً عاديين قد يجدون أنفسهم واقفين على شفير خنادق الموت والرشاشات في أيديهم. إنه لمن المفيد لنا اليوم أن نفهم كيف أن الطغيان يمثل استجابة للعولمة، لمظاهر انعدام المساواة الحقيقية والمحسوسة التي خلقتها، وعجز الديمقراطيات الظاهر عن معالجتها. يُقدم هذا الكتاب عشرين درساً من القرن العشرين، ملائماً للظروف والملابسات التي نحياها في أيامنا هذه.

الثمن: ٦ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN: 978-614-431-756-3

مكتبة
t.me/soramnqraa

جسور للترجمة والنشر